

الطبعة الثانية

الاعتقنة

رواية

سَلام عَبد العزیز

دار
السياقية

العمّة

تصميم الغلاف: سحر مغنية

سَلامَ عَبْدِ الْعَزِيزِ

الحَقِيقَةُ



© دار الساقى
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2009
الطبعة الثانية، 2013

ISBN 978-1-85516-338-6

دار الساقى
بناية النور، شارع العوينى، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114-2033
هاتف: +961-1-866 442، فاكس: +961-1-866 443
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi



دار الساقى



Dar Al Saqi



المحتويات

٩	رُفات الظلّ
٢٠	المنعطف
٢٤	وخز
٢٩	ذو القلب الميت
٣٥	طوق
٤٠	ارتياب
٤٤	يرتجف ويتصبّب عرقاً
٤٨	ضنى الخواصّ
٥٣	الركن الملاصق للجدار
٦٤	إيقاع
٦٨	أم الدنيا
٧٢	لعب بنات
٧٦	سَدَنَة نسج الحكايا
٨٢	بدايات
٨٨	روح

٩٢	عيون في الجدران
٩٤	في تمام الجنون
٩٧	الباب الموصد
١٠٣	مسافة تقترب
١٠٧	مفاتيح
١١١	كان سيأتي
١٢٠	الباحث عن مرفأ
١٢٥	خائبة المسعى
١٣١	حزن فريد
١٣٧	وشوشة الغيب
١٤٤	الحوار الدفين
١٥١	النفق
١٥٩	صهيل
١٦٥	كافور
١٧٤	ريح تهبّ
١٧٩	الثعلب والمتاهة
١٨٤	دواعيس
١٩١	دلوعة
٢٠٥	ورطة الحبّ
٢١١	الحبس
٢١٦	رفيف
٢١٩	الفخّ

٢٢٢	الوحيدة التي
٢٢٩	خفقة جناح
٢٣٤	قيد الأمل
٢٣٧	في الديرة
٢٤٧	الجرح
٢٥٢	الذكرى الدميمة
٢٥٧	سفينة النجاة
٢٦٤	دُمى الساحر
٢٧١	جبروت أنثى
٢٨١	واكتمل القمر
٢٨٣	امرأة الحلوى
٢٨٧	وجل الترائب
٢٩٧	جدران وحيدة
٣٠٢	وجد ويأس
٣١١	شُح الأيام البهيجة
٣١٥	الرويا
٣٢٦	حيّ على الظلام

رُفَات الظلّ

يرفع المسدّس... يُحرّك الزّناد... صوت الغرور الأرعن يهدر غاضباً
ليصقل المرايا:

- ابتنقلع يا "السربوت" ولا أخطها في رأسك؟

- أبغى حمود قلّه يطلع لي.

- أنت ما يُفيد فيك غير الرصاص.

يتراجع بضع خطوات إلى الخلف، يُحرّك الزناد من جديد...
وتنطلق الرصاصة. يشقّ صوتها صمت السلام في قلب حميدان،
ثاني رصاصة تخترق قلبه الموعود بدويّ الرصاص... "طشّ" معها
دمه وهمى على الأرض... ليرتحل إلى الأفق البعيد، لم يعرف من ألق
الحياة سوى رمادها... نافثاً في غموض الموت... أسئلة للحياة.

يدويّ الصوت... يترنّح الغزال... تعبّر أزقة حارقة، آثار أقدام
تُلهب الطريق لاهثة تتلفّت إلى الخلف وهي تجري طريدة، برارٍ
موحشة، صباحات نديّة، ورعشة قلب، مدائن تحتضن الغربة، باب
يوصد بعنف، رماح، وفهدٌ جريح.

عواء...عواء...

تبلج عيناه ويغيب سوادهما... يسقط... يسيل دمه في التراب...
يهد خواره العظيم... تنتفض أوردة ساقيه... تلتف، يسود السكون.
تطير أسئلة حميدان وأغانيه التي طالما رَدَّدها قبل أن يُغَيِّبه الجنون،
ثم يجتثّه الموت. لم يمتلك في حياته شيئاً ولم يمتلكه شيء. حرّ، مُخلّق
على الدوام، ما إن يلمح الطيور سابحة في بحر السماء، حتّى يرفع
يديه كالأجنحة ويجري معها في الاتجاه ذاته، حيث تطير في سمائها
الفسيحة. يطير هو... على الأرض، ملاكٌ مُلَطَّخٌ بإنسانيته وهارب
من جحيمها، بينما تهتزّ الأرض اهتزازات خفيفة لا يُسجّلها مقياس
ريختر وتثّن وكأنّها مكتنزة بحمم توشك على الانفجار.

ما عادت أزقة حيّ العشائر الذي شهد تهاويه، تضيق بعثه في
واجهات المحلات وتكسیره لها للوصول إلى زجاجات البيرة
وتخبئتها في جيوبه، ثمّ مطاردة رجال الشرطة له وضربه، وأبناء الحيّ
يتطفّلون ساخرين من عباراته الحانقة والمهدّدة لرجال الشرطة بينما
الدماء تتقاطر من جبينه:

– ألعن أبوكم... تضربوني بالشواكيش يا عيال الكلب.

ثم يجري ككلب أجرب كُسرت إحدى ساقيه، وصمّم على
مواصلة الهرب في أزقة تأخذه لنهايات مسدودة تُعيده من حيث
ابتدأ، جائعاً... شريداً، أو محصوراً يتبول في عطفة يداري بها سوءته
ثمّ ينهض ويصافح المجهول.
قُتل حميدان.

ولا زالت أبواب السرّ الغامض الذي جرى لاهثاً طوال حياته لسبر
أغواره موصدة. كفّ الآن عن الجري واللّهاث، وركدت أعماقه إلى

الأبد. وضع حوائس ومشاعره في مقدمة أدواته للتعامل مع الحياة بقلب طفل، فكسره نقاؤه وشفافيته وبقي ضميراً... لصدر نخرته السجائر والفجيرة، وبقايا جدار أمان استند عليه يوماً فباغته بانهايار سريع... وبقي خطامه.

كانت الرّصاصة التي أنهت حياته جهلاً، في شارع خالٍ إلا من غرور العصيّة، وشاهد صامت بلا ذاكرة. قطّة بيضاء يبقع رمادية مكتنزة البطن لمحت الحدث وتلاقت عيناها بعيني مطلق في فرع مشترك، حين سمعت دويّ الرّصاص وحميدان يسقط ودماؤه تتبعه، أخذت تركض على غير هدى رغم حملها الذي أثقل خطواتها. القطّة تطوي الطرقات وكأن أحداً يطاردها، تقطع المسافات الترابيّة، المسافات الأسفلتيّة، إشارات المرور... تتجاوز البيوت، المحلّات التجارية... تجري... تجري... قلبها يدق بعنف وخطواتها المتسارعة تثير الرمال الناعمة خلفها بينما يهتزّ بطنها المكتنز مُخلفاً المأدق في خاصرتها.

تجري حتى أنهكها الإجهاد والعطش، فالجؤ شديد الحرارة والوقت عزّ الظهيرة. تقف وضربات قلبها تتسارع. تلهث ولسانها قد تدلّى. تقف أمام عمارة فارعة. باب العمارة مفتوح. تدخل الدور الأرضيّ باحثّة عن ظلّ. أبواب الشقق موصدة، ودرج يمتدّ إلى الأعلى.

تصعده بشكل مباغت كأنّها تذكرت أنّ أحداً يطردها، وتنطلق إلى الدور الثاني والثالث حتى تصل إلى الأخير حيث الباب المؤدّي لسطح العمارة المفتوح. تنطلق نحوه، تصفعها الشمس الحارقة من جديد، تلمح في انكسار نظرها بشعاع الشمس نافذة تطلّ على السطح

لإحدى غرف الدور الأخير يستند على زاوية مقدّمتها زرع أخضر،
يبدو لأنفها الشديد الحساسية والالتقاط أنها أزهار فلّ وياسمين
محاطة بأعشاب خضراء تحيط برواز النافذة. تقفز نحو الزرع لتحتمي
بخضاره وبرودة المكان الترابي تحته... البرودة والمحيط المنعش أخذ
يشعرها بمقدار الإجهاد الذي يهصرها. تأخذ في الاسترخاء، تُحدّق
في النافذة الزجاجية الشفافة التي رفعت ستارتها كي لا تُخفي منظر
الأزهار.

تضع يديها الناعمتين في سلام خُرافيّ أسفل ذقنها وتتوسّدهما
وبصرها يحاول التقاط الصّور في الداخل.
تبدو غرفة نوم واسعة. كوميدينو تقف عليه زجاجات عطر وفرشاة
شعر وبودرة وكريم أطفال. سرير متوسط الحجم تتمدّد عليه فتاة شابة
وطفل صغير. القطّة تتأملهما... تغمض عينيها وتفتحهما بتكاسل...
تنعس... تنعس...

— أنا أم... للللل... أأأأ... لللل... أم... للللل.
يتردّد الاسم في فضاء هلاميّ الشكل أشبه بحلوى "الجلو الشفاف"،
بينما تجول عيناها في عدم فهم فيما يُحيط بها وهي تسمع اسمها يتردّد
بعد أن أجابت الصوت الذي سألها عنه.
تسيرُ وريخٌ ذاهلةٌ تسكنها، تَغرسُ أنفاسها الحائرة في فضاء غريب.
تلمح ضوءاً ساطعاً يتّجه بسرعة نحوها يشدّها كالْمغنطيس فتدخل دون

إرادة في أتونه. تغوص في ضوء لا تتمكن من شدته من الرؤية.
تنظر أسفلها.

تُبصر جسراً ترائياً صلباً أسفل ماء أشبه بالبحر الشفاف، تسير في
جوفه في رحلة جماعية أسراب من الأسماك الملونة المتباينة الأحجام.
ترفع رأسها إلى الأعلى، تجد نفسها باتت داخل البحر والأسماك
فوقها. تقف فجأة على حافة بوابة. يختل توازنها فتهوي في قاع
أشبه بقاع بئر عميق.

تُدرك أن زمنها قد غادرها وباتت لا مُتتمية حين امتدت لها يد
امرأة طاعنة لا تعرفها وكأنه من الطبيعي وجودها معها لتمسك بها.
تصعد بها سلا لم حتى إذا بلغت آخرها استشعرت انفرادها في كون
متحرك من الغيوم. كتل من الدخان الأبيض تُحيط بها من كل الجهات.
تشهق، ثم تصرخ وتتناثر أنفاسها في ممرات المكان الغريب.
تركض... يتحول المكان إلى جدران عالية عليها رسومات أشبه
بالرسومات الفرعونية... تلتف الجدران... تدور... وتعالى. تلمح
في الجهة اليسرى ظلالاً، تجد نفسها فجأة قرب جدار الظلال... يشف
الجدار أمام عينيها عن بقعة دائرية موازية لمستوى نظرها. تقترب أكثر
من البقعة... تقترب، تُدقق النظر... مكان تعرفه جيداً... غرفة...
سرير رحب... فتاة نائمة بقربها طفلان، تفتح عينيها على سعتيها...
فالفتاة النائمة هي ذاتها... تُبعد وجهها بخوف وهي ترتق توجساتها
مُحدثة نفسها:

– أكيد أنا أحلم! أنا في حلم!

السما تقرب منها بسحب بيضاء، وبصوت ضخم كأنه آت من

أعماق سحيقة، يردّ بصدى صرير يكاد يتلعتها:

- والحياة... حلم... حلم... لمم... مممم...

تجري ممعنة في الفرار. وبلا مقدمات تجد شاباً لا تتضح ملامحه يجري معها ووميض عينيها يشي بالدهشة والاستسلام. يُمسك بيدها ويصعد معها درجات طريق ممتدّ في تعرجات تضيق ثم تتسع ثم يضيق شيئاً فشيئاً ويتجه آخره نحو الأعلى... كأنّ امتداده ينتهي في السماء. تلتفت إلى اليدين المتلاصقتين وهما تجريان مشختين بالدفء. تُحدّث نفسها بأنّه دائماً هناك يد ممتدّة، في كلّ محطة... هناك من يقدّمه القدر ليمدّ يده، ليكون حلقة وصل... يساعدك في العبور والتجاوز لضفة أخرى... هؤلاء الذين تقذف بهم الحياة في محطاتنا لهدف محدّد، قد يواصلون المسير معنا... وقد يكونون... قدرنا، وربما ينتهي دورهم بعد أن يخرجونا من حالة ما، وضع ما، ونحن دون أن ندرك نوّديّ لهم الدور المرحليّ ذاته ليعبروا إلى ضفة ما، وفهم ما، يؤدّي كلّ منا دوره المرسوم ثمّ نمضي كأنّ لم نكن وكان لم يكونوا.

تشعر بلمسته تقبض عليها في حنان. يسقطان على الجسر الممتدّ الآخذ في التهشم السريع. تُحاول أن تصرخ لكنّ صوتها لا يخرج، تهتزّ الأرض أسفلها، تغوص في اللاشيء... يهتزّ جسدها كلّها وكأنّها تسقط...

تسقط.

يهتزّ جسدها في السرير... تفتح عينيها... صمت مطبق... عقلها يعود إلى عالم الوعي، تتحسّس ما حولها... ملمس البطانية الناعم...

طفلها الصغير ذو الأربع سنوات نائم على يسارها... تستعيد الواقع...
ذهنها يردّد رسالة الحلم:

— والحياة حلم.

تشرّد في العبارة، رأسها ثقيل... تُحاول استعادة ذاتها. تنهض وقد
بلغت الساعة الرابعة عصراً، تسحب منشفتها من على الشّماعة وتتجه
للاستحمام.

في السابعة والعشرين من العمر، مُهرة بقامة فارعة، وجسد نحيل
في شبه امتلاء. بطن ضامر تتضح استدارة حوضه نتيجة امتلاء منطقة
العجز لديها بشكل مميّز. ببشرة بيضاء وعينين عسلّيتين واسعتين
بحاجبين كثيفين مقوّسين. أنف رومانيّ وشفتان صغيرتان ممتلئتان
في اعتدال، إذا اعترأها الكدر انقلب بياضها إلى صفرة وباتت عاديّة
الجمال، وإذا ابتهجت روحها تحوّلت إلى فاتنة.

تُحرّك الأنبوب جهة الماء الساخن ليس لأنّ الجو بارد لكن لأنها
تشعر بصقيع في الروح تكاد تبلغ معه حدّ البلادة العاطفية. تُحاول
إيقاظ عوالمها النائمة، يمتلأ الحمام بالبخار، يتساقط الماء الدافئ على
رأسها، تبدأ خلاياها بالصحو وذهنها لا يزال يُردّد عبارة الحلم:

— الحياة حلم... حلم.

تمتدّ يدها إلى علبة الشامبو، تنثر كمّيّة على رأسها ثم تُعيده إلى
موضعه وهي تشابك شعرها وتفرك جذوره لتتساقط فقاقيع الشامبو
على وجهها، تزيل الشامبو من فوق عينيها، تجمع الفقاقيع في كفيها،
تقذف بها إلى الأعلى، السقف المضاء ونور الوجود البهّي... وعيناها
ترقبان التطاير المبهج... الفقاقيع بهجة... فرح... العبث بها يعني

القدرة على الاحتفاظ بإنسانيتنا البكر وبراءتنا الأولى... زمن الطفولة قبل أن تتلوّث الروح.

عينها تُبحران معها في صورة بعيدة. تتساقط الفقايع على رأسها، تتساقط على وجهها، يتحوّل السقف المضاء إلى سقف يرتدي قطيفة مخملية تزدان بالثريات والصخب:

القطرات الملونة تتساقط كوقع الندى على رأسها لتتويجها ربّة الألق وملكة الحفل وهي تتهادى بثوبها الأبيض في الليلة الحلم، فتمتدّ حقول للياسمين ويتفتح البنفسج ليمنحها مفاتيح الأنوثة دفقة واحدة. تحفّها الأضواء الباهرة المعلقة في أهذاب السقف لتضفي جواً ساحراً مُكثّراً بالأيام الحافلة بالمسرّات. ورد أبيض صغير تقذف به الفتيات على رأسها وزوجها عبد الله، تسير ويدها اليمنى تحتضن حفنة الزهور البيضاء بينما اليسرى أسلمته عمرها وعانقت يده.

تذكر أنّ عبد الله كان رجلاً طيباً، لم يحرث فيها مشاعر الأنثى ولم يمنحها دفء الاحتواء وحلاوته، لكنه خلق فيها مشاعر ودّ واحترام عميقين فتآخت مع انهمازه العفوي وأترعت بصدقه الذي أوقد جمرات الأمان في امتداد دربها. بسيط... في كلّ شيء... معاملته... طقوسه الحياتية... قراءاته لا تتجاوز الجريدة اليومية، منفتح بحدود. يُناقش بلا تشنّج وككلّ ذوي القلوب البيضاء نوافذهم مشرعة للتعاطي السّلس مع الحياة... بأجنحة فراش.

تكوّر بطنها بعد ستة أشهر، حين ارتوت الأراضي البكر وفاضت أنهارها فأينعت شتلة يانعة أطلقا عليها يحيى، وبعد سنتين فاض النهر مرّة أخرى ليوقف ارتواءه انحسار الغيم... حين خبأ القدر لنكهة

البياض امتحاناً عسيراً. سقط عبد الله بسرطان المعدة، لم يُكتشف إلا في مراحلها المتأخرة ليضرب موعداً فضفاضاً مرّاً لاستيعاب درس الحياة، لم يمهلها القضاء كثيراً، كان تدفق أصدقاء الرحيل في أوردته لاهثاً فعاجل بطرحه نزيلاً دائماً في المستشفى، فتجذّر معنى الفقد وهي تراه يتلاشى أمامها شيئاً فشيئاً حتى قبل أن يفارقها.

تذكر في إحدى المرات أنها دخلت عليه فلم تر في سريره وهي واقفة أمام الباب ميمّمة صوب الغياب وغبار التلاشي ما يشير إلى وجود أحد ينام عليه. راودها الشك في نقله إلى مكان آخر أو... طردت شيطانها ودلفت للوهم الذي يحتضنه، لتلمح أنفه يخرج من أعلى الشرشف الأبيض... لم يبقَ منه سوى عظامه... وعينين صفراوين أنهكهما الوجع... والكيمائي اللعين، فبات هناك تماسّ واضح بقصد أو دونه بين خطّ الحياة والموت، تماسّ بين الأبدى واللامحدود أكثر من الحضور الفعلي له رغم وجوده المادي. فشرارة الحياة في عينيه باتت مُطفأة، بلا تحفّز ولا حماسة كأنّها دورة الروح في بلوغ النهاية.

تذكر يومها أنها بكّت بمرارة. بكّت طوال اليوم فأعشبت أنهارها وجعاً نبيلاً وفاضت أصالة... صمّمت على مرافقته في المستشفى ليل نهار، وقد أدركت كم توجعنا الحياة حين تجعلنا نقرب من أناس يُمثّلون لنا علامات فارقة، نراهم وهم يتألّمون بهذا الحجم، ثم لا نملك سوى البكاء شفقة عليهم.

تنظر إلى نافذة الحمام الزجاجية من خلال بخار الماء الساخن الذي يغمر رأسها، بخار الماء ينزل على النافذة البيضاء ويرسم تعرجات

كتلك التي تستوطن قلبها... وتأبى المغادرة:

(واجهه المستشفى الزجاجية محاطة بالخضرة التي تتقدم بابها،
غرفة العناية المركزة، الجلو كوز الممتد كإكسیر عاجز عن إمداد صاحبه
بصحة الحياة، شاشة تتعلق عيناها بدرجاتها ساعات طويلة، درجة
الضغط، نبض القلب ونسبة الأوكسجين.

و حين تتعب من الوقوف وتناسل اللحظات الميته المنسيّة، تعود
إلى كرسيّ جاف كحليّ اللون تسحبه وتقذف بجسدها المنهك كما
روحها قرب عبد الله، لتمارس معنى الاحتراق بصمت وهي تتأمل
انطفاءه، مُحايِلة على جبروت الرّحيل عبر الإصرار على مواصلة تدفق
رسائل الروح بينهما، وأحياناً تنطلق نداءاتها موعلة في الرّجاء علّها
تبلغه، وحين يخذلها الرّجاء ويسحبها الخرس الضّاحج بعوالم أخرى
لا تبصرها. تضيع في اللحظات المكتنزة بالعدم... تفكر في اللاشيء
لساعات طويلة، تعود بعدها لتأمل ملامحه التي نخرها ديب الموت
وزحف في أوصالها الرحيل، جلد... وعظام... ونظرة يسكنها
الزوال.

تدسّ يدها في يده الضامرة... ترصّها بين الفنية والأخرى، علّه
يستفيق من غيبوبته فيشعر بها، تُرخي قبضتها... تتأمل شحوبه...
هزّاله... ثم تشدّ على يده، فجأه يأتي صوت إنذار متصاعد:

— توت توت توت توت...

يوقظها الصوت الرهيب من سكون اللحظات العدمية، علامة
استفهام تعلو الشاشة وخط ممتد، تفتح إحدى الممرّضات الباب بسرعة
وكانها تقتحمه صارخة:

– كود.بلو... code blue.

تتراكض الممرّضات والطبيب. حالة استنفار، الممرّضات يبعدها عن السرير، الدكتور يضع يديه على صدر عبد الله ويضغط، يضغط، يبدو لهم أنّ القلب قد توقّف.

ينظر الدكتور إلى الشاشة... الضغط... صفر... نبض القلب صفر، تركيز الأوكسجين في الدم صفر... كلّ شيء صفر... خطّ ممتدّ... تُعتم الشاشة.

كلّ شيء مضى مثل الومضة الخاطفة. عيناها متسعان في وجع صارخ... حتى الدمع تجمّد... وإحدى الممرّضات تحتضنها وتأخذها بعيداً).

تُغلق صنبور الماء وكأنها تغلق معه ذكريات لا تريدها أن تطفو على سطح أيامها فتسلبها العنقوان. تلتقط الفوطة الزهرية اللون وتخرج وهي تمسح طين جسدها لتلمح في النافذة قطعة تفرّ من نومها على صوت حجر قذفها به أطفال مراهقون.

تنواري عن النافذة كي ترتدي ملابسها، بينما تقفز القطّة وهي تلمح أحد المشاكسين يتوجّه نحوها. تهرب. تبلغ باب السطح وتفرمل في حركة دفاعية غريزية وهي ترى انحدارة الدرج. تنزل مسرعة بحثاً عن محمية طبيعية آمنة وخالية من جلافة البشر، حتى تبلغ باب العمارة والفتية خلفها... تجري في الشوارع التي تحضّر كلّ شيء فيها سوى ناسها... تجري وتجري وتجري... والرمال المتطايرة تتبعها.

المنعطف

مطلق... الفتى الأرعن... ذو الثامنة عشر ربيعاً.

أهدرها في الطيش واستصغار الناس من حوله ، شأنه شأن كل أفراد عائلته الذين لا يرون خلق الله إلا من خلال غبش الدونية وعتمة الاحتقار. مجرد كائنات طفيلية يُفترض أن تسير على أربع ولا تلامس الأرض، بل تعانق شقوق السقوف وتتعلق بجدرانها.

وقف مرعوباً أمام الطبيب في قسم الطوارئ ، وقد أيقظته فداحة جريمته على هول الكارثة:

– الرجل متوفى ولا بدّ من استدعاء الشرطة للتحقيق.

– أنا مجرد فاعل خير، وجدته مُلقى أمام بابنا وأحضرتة مباشرة.

– اعذرني، موقف كهذا يُحتّم بقاءك حتى مجيء الشرطة، هذه

جريمة قتل.

لهنيهاً تجمّد في حالة ذهول، ثمّ اتجه إلى أقرب تليفون في المستشفى ليتصل بوالده. التقط والده سماعة الهاتف ببقايا نوم علقت أهدابه وتطايرت على الكارثة التي يسمعها. عقله مشلول لا يردّ سوى بكلمة واحدة:

— إيه... إيه... إيه.

أغلق الخط وقفز من موضعه، ليتناول "شماغه" على عجل وهو يهَم بالخروج دون حتى أن يغتسل من آثار النوم ورائحته.

تسأله زوجته عما به، فيلوح بيده:

— ابلعي العافية... مانيب فاضي لك.

احتضنت صدمته سيارته الشاحبة التي امتطى صهوة مقعدها على عجل، وعقله يتخبط في أفكار عديدة لا تولد فكره حتى تنفلت أخرى قبل أن تتضح معالم الفكرة الأولى.

عبر الشوارع دون تركيز، تجاوز محلات عقار... محطة بنزين... شارعاً تجارياً، ورشة سباكة، مطاعم، ثم اهتزت به السيارة وترنحت حين بلغ مبنى وزارة الثقافة والإعلام. انفجرت عجلة السيارة، فتوقف لإصلاحها وهو يلعن كل شيء.

تناول عجلة جديدة في ظهر السيارة ورفع رأسه. نظر إلى الشمس بحنق فقد الرؤية للحظات. حين استعاد قدرته على الرؤية، لمح شاباً ثلاثينياً نحيلاً بقامة مُعتدلة تميل إلى الطول وبشرة سمراء يوشك على دخول الوزارة، تمنى لو يلوح له بيده ليساعده في إصلاح سيارته. سال العرق من أبي مطلق، وبلغته رائحة عرقه فتأفف من كل شيء، سب مطلق وسب نفسه والحياة كلها. تقاذفته الوسائس، وابتلعه الطريق.

فيما دخل الثلاثيني النحيل مكتباً وضعت عليه لائحة "إجازة النصوص"، قذف جسده على مكتبه الضاح بالمساحات الميتة الفارغة، ورمى معه سكون اللحظات حين لا يُشرق في ضوء نهاراتها

سوى الكلس يعلو الوجوه وبلادة الأمكنه، وحنين جارف لشمس
تحرث بأشعتها العتمة.

استسلم لرتابة يومه العملي، لكنه سرعان ما شعر بالملل فرفع رأسه
من بين النصوص التي تنتظر الإجازة وسأل صديقه جعفر الوسيم
عمّا يعرفه عن شهر محرّم الذي يعلم قداسته لديهم. ابتسم جعفر على
سذاجة السؤال المبطن بامتحان لقدراته ابتسامه الواثق، وأجاب دون
أن يرفع رأسه عن النصوص التي علت وجهه مكتبه:

- بسيطة... في التاسع من محرم: جرت محاصرة الإمام الحسين
عليه السلام من جميع الجهات في أرض كربلاء واجتمع عليه خيل
أهل الشام كالدائرة بقيادة عمر بن سعد. وفيه: خرج نبيّ الله يونس
عليه السلام من بطن الحوت. وفيه: ولد موسى ويحيى ومريم عليهم
السلام.

العاشر من محرم: وقعت معركة "الطف" التي قتل فيها الإمام الحسين
وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام في سنة ٦١ للهجرة. وفيه: أمر معزّ
الدولة الديلمي أهالي بغداد بإغلاق المحلات والأسواق وإقامة مجالس
الغزاء على الإمام الحسين عليه السلام وذلك في سنة ٣٥٢ للهجرة.
وفيه: دخل هولاكو مدينة بغداد الذي على يده سقطت الدولة العباسية
في سنة ٦٥٦ للهجرة.

بدا راشد وكأنه قد خُطف وصاح بإعجاب:

- مو معقوله... موسوعة!...

حلّقت ضحكة جعفر وهتف:

- عاد هذا سؤال! أنت تسألني عن شهر رضعناه في حليب

أمهاتنا... أكمل... أقول أكثر... وأكمل:

السادس عشر من محرّم: تحوّلت فيه قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المكرّمة في السنة الثانية من الهجرة. السابع عشر من محرّم: نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل (بقيادة أبرهة) حينما أرادوا هدم الكعبة. العشرون من محرّم: تمّ فيه زفاف فاطمة الزهراء عليها السلام إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في السنة الثالثة للهجرة .

صفّق راشد وابتسامته تملأ وجهه:

– يخرب بيتك، إيش أكون أنا جمبك! تعرف أنا لو مكانك أشارك في برنامج ”من سيربح المليون“! يقطع حديثهما دخول شاب بيده مظروف قائلاً:

– إنتوا مطلوبين للتحقيق، المدير قال أسلمكم المظروف هذا! سلّم المظروف إلى راشد الذي تناوله بهدوء وفتحه. قرأه ثم التفت إلى رفيقه، موضحاً أنّ الخطاب قادم من وزارة الثقافة والإعلام في الرياض، فيه مساءلة عمّن أفسح كتاباً يُطَيّف المجتمع. مطلوب توضيح وجهة نظرنا التي دفعتنا لإفساح كتاب كهذا، واعتذار عن الفسح... أو نُحال إلى التحقيق.

شرح كلّ منهما في شرح مبرراته للفسح، من مُنطلق أنّ تعددية المذاهب وإفساح المجال للمذاهب الأخرى ليس فيه ما يُخشى منه قياساً بقمعها ومصادرتها في التعبير، فالإسلام ليس بهذه الهشاشة كي تهزّه أيّ اختلافات مذهبية، والعصر الراهن يتطلّب الالتحام والوحدة لا قمع فئة وتعالى أخرى، كلّنا يجمعنا الدين الواحد، ويعزّنا الدين ذاته!

وخز

الحياة في حيّ طلال حيث يسكن راشد تخلو من الضجيج. تمتد الأزقة في سكّون وافر. حيّ راقٍ، صامت، بلا حياة، ولا نبض، رغم كونه يضجّ بالسكّان الذين يتوارون خلف جدران منازلهم على الدوام. يقترب من شارع "أبو الدرداء" حيث منزله الشاسع الاتساع، يقف بزاويته الخلفية التي يُطلّ منها على الشارع عمود كهرباء ممتدّ القامة، ينعكف رأسه إلى الأسفل في ثريّات نيون شديدة الإضاءة، كزهرة عباد الشمس حين تنحني مع وهج الضوء، وترتفع فوق جدران المنزل الأشجار الباسقة والتي لا يجاريها في امتدادها سوى "الدشوش" التي تعلو سطح المنزل المُصمّم من الحجر في هندسة رائعة وجاذبية واضحة، شأن باقي منازل الحي الناصع النظافة والذي قلّ أن تجد أحداً يسير في شوارعها، كما قلّ أن تجد منزلاً لا تُحيطه الأشجار المنسّقة في تشذيب جميل.

لمح سيارة عبد الرحمن ترقد تحت المظلة السكرية اللون، والمُصمّمة لتتسع لسيارتين تقفان تحتها. ركن سيارته خلف سيارة أخيه ودخل. تمّد راشد ذو الثامنة والعشرين ربيعاً على سريره. وراشد ذو أنف

مرهف بشفتين مزمومتين يعلوهما شارب شديد السواد، ببشرة سمراء شبه داكنة وعينين عسليتين تميلان إلى الاتساع، ورثهما عن أبيه كما ورث كل صفاته من شموخ في القامة، وجسد مصبوب لاحتضان موغل في الدفء، باعتداد يبدو جلياً في خطواته حين يسير. يشبه والده في كل شيء، في القوام والنظرة وطريقة المشي وأسلوب الحديث، لم يأخذ من أمه سوى شفتيها وحنانها الذي يداريه بالكبرياء.

لوحة لقوس قزح كبيرة الحجم ترتكز في قلب الغرفة، ينخفض بصره على مكتبه الصغير الذي يعلوه جهاز كمبيوتر وصورة لوالده بالأبيض والأسود في حضنه عبد الرحمن - الأخ الأصغر لراشد رضيعاً، ويمسك بيده طفلة في الرابعة من عمرها كانت قد توفيت بمرض في القلب، وفي الوسط راشد أكبرهم جالساً على الأرض وهو في السابعة من عمره.

في الجهة المقابلة يرتكز برواز بالحجم ذاته حُطّ فيه: "ليقطعوا عظامي... ليهرسوا لحمي... ليقتلوني... وعندها فقط سيحصلون على جسدي... ولكن لن أعطيهم حرّيتي" غاندي.

اتجه بصره إلى مكتبته الواسعة ذات اللون البني وكأنه خشب الصندل؛ رفوف تعلو، رفوف تغصّ بالكتب الحديثة الطبعة والمهلهلة. نهض ونظر عبر نافذة غرفته نحو ساحة المنزل التي حضنت لعبه صبيّاً، وعبثه شابّاً مراهقاً، بحديقته ذات السدرة الوارفة والتي باتت معلماً في ذاكرته. لا تهطل ذكرى البيت إلا وتهلّ صورة السدرة، بينما تمتدّ في غير ترتيب أزهار الروز والريحان الذي حال سوء الجو دون اخضراره فبدى به شيء من الاصفرار والتقصف وكأنه يعاني

من فقر دم مزمن. وعلى حافة حدود الحديقة تمددت قطعة بيضاء يقع
داكنة منتفخة البطن تبدو في شهور الحمل الأخيرة، للتوقفت الجدار
وأخذت تلتقط أنفاسها ثم توسدت يديها الناعمتين وأغمضت عينيها
ثم فتحتهما.

خرج من غرفته بحثاً عن والدته، فلما لم يعثر عليها في صالة المنزل
فتح الباب المؤدي إلى الحديقة، فبلغه صوت عاشق الفرح حسين
الجسمي وقد توسّطت أمّه وأخوه عبد الرحمن ذو الثالثة والعشرين
الساحة، هي تتمايل على الأغنية مصفقة وأخوه يرقص:

ابتدي يا حب وارسم	في سما هالليلة قلبين
اكتب منيرة بالاول	واكتب الثان لخالد
أو يجي لك راي وقف	ماله داعي ترسم اثنين
اكتب الاسمين لكن	حطهم في قلب واحد.

أمّه، المرأة الكون في دمه تجلس باسترخاء وهي تتمايل بانسجام
مصفقة بإيقاع تهتف لعبد الرحمن:

— عاشوا... عاشوا.

عاودت التصفيق المتناغم مع اللحن، بينما ضحك راشد موجهاً
حديثه لأخيه:

— ما تقوت... ما إن تسمع الإيقاع إلا ورفعت يدك

أضاف بعفوية:

— سأحذف خالد وأضع راشد.

اندفعت الأم مبتهجة:

— عسى انشاء الله... واسمها منيرة بعد؟

غرق راشد في الضحك:

— إيش عرفني... اسألي الجسمي!

استدار عبد الرحمن إلى الجهة الأخرى وكأنه في عالم آخر، ثم التقط عصا خشبية ملقاة على الأرض ورفعها إلى الأعلى في خطّ مستقيم بين يديه. تشنّى جسده يمينا ثم يساراً ثم حمّت أمه إيقاع التصفيق، فزادت حركة يده وجذعه تمايلاً، لتشارك كلّ أعضائه في انسجام كامل مع تصفيق أمّه وصوت الجسمي مترجمة لغة الجسد في التعبير عن حالة التواصل بين الصوت والحركة.

شعر راشد بالمتعة وهو يرى أخاه يرقص بهذا الشكل الذي يجسّد الرّقص الرجولي الشبابي في المنطقة الشرقية. ألقى عبد الرحمن بالعصا وشدّ يد راشد يسحبه لمشاركته. دخل معه راشد في طقسه. ثنى يده اليسرى أسفل اليمنى التي مايلها مرتفعه إلى الأعلى بتدرّج وانسيابية في الكفّ، ثم تناغمت حركاته مع عبد الرحمن إلى الأمام والخلف ليشكّلا ثنائياً في حركتهما، متقابلان ثم متوازيان ثم متقابلان ثم متوازيان وهكذا.

وبقلب الأمّ الذي لا يعرف سوى الاحتضان هتفت:

— إيه يمه وسّع صدرك، كلّه مع هالجرايد، عاشوا... عاشوا عيال

الرئيس.

ألهمت يداها بالتصفيق، لولا أنّ هبة ريح عاصفة قطعت مرحهم البريء، وتحوّل الأفق إلى شحنات غبار كثيفة حتى غدا الجو خانقاً

يصعب التنفس من خلاله.

نَزَّتْ عن شجرة السدر أنة ذات صرير وطمألت أغصانها، بينما
تدافعت الغيوم الشاحبة والمكتنزة بغبار متوارٍ زفرت معه نباتات
الحديقة رائحة فوّاحة سريعة التلاشي، ثم عصفت الريح وانهمر غبار
خائق مُحْمَلٌ ببقايا صحف الشارع وأوراقه التي فقدت ثقلها من شدة
الريح فارتفعت عن الأرض وحملتها ذرات الهواء الغاضبة ثم عادت
إلى السكون.

توقف عبد الرحمن وهو ينظر إلى السماء قائلاً:

— دخلي يمه بسرعة... صدرك يتعب.

امتدت يد راشد لمساعدتها على النهوض وهي تتمتم بحسرة:

— حسافة... تونا نحمي.

أخذت الريح ثنّ بصوت عاصف يذرّ الخوف في النفوس. دخلا
على عجل، وتبعهما عبد الرحمن الذي استوقفه مواء القطّة، فالتفت
إليها حين لمحها تتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن مكان محميّ من
وخزات الغبار حين استحالت السماء إلى حُمرة خانقة، تُلقِي بظلالها
على نفوس البشر، فتعصرهم كآبة غريبة لا يجدوا لها تبريراً.

اتجه نحوها بشفقة ونظرت إليه بانكسار وقد التقطت بحدسها
الغريزيّ أنّ هذه روح مسالمة، امتدّت يده لحملها، فاستكانت
مُسْتَسْلِمة.

ذو القلب الميت

هوت على أقرب مقعد بعد أن أنهت المكالمة التي جاءتها من أمها
تبلغها أن عمها حميدان قُتل وغُيِّبَت أناشيده إلى الأبد، وسيوارى
جثمانه في الغد بعد انتهاء الإجراءات الطبية والقانونية.

شعرت بطرقات مطر شجيّ تدبّ على نوافذ قلبها ففاحت رائحة
عُشبه، واستطال عمر قصي:

عمي حميدان، طليقة رصاص مرّة أخرى؟! كأنّ قلبك موعود
بالرصاص... في العقل... وفي الجنون. هل هذا ثمن الإخلاص
للبياض؟ أم أنه... الخلاص؟!

مثل فراشة فردت أجنحتها وحلّقت في الغيم. انثالت الطفولة
المنسيّة حين كان يزورهم وهي في السادسة وابتسامته الضاوية تتراقص
على ملامحه الشديدة الألفة، كأنه تَوْضاً للتوّ بماء زمزم واعتمر. تذكّر
أنه كان يحملها عالياً، مردّداً ببهجة نضرة "ذات البريق في عيون أُمي"
ثم يتبعها: بس قلبك مثل قلبي.

براءة كانت تهتف: يعني شلون؟!

تضوي عيناه بفرحة عيد في عيني طفل: يعني مثل نور العيد.

تُعِيد براءة: يعني شلون؟!

يمسك يدها بين يديه قائلاً: يعني جينات وراثية... مثل ما هي في دمي... في دمك.

تتذكر أنها في أرجحتها بين يديه كانت تهتف به أن يقف فقد جاؤوا! وحين يسألها عمّن جاء كانت تردّ براءة عذبة وهي تُحدّق في السماء: القطن. وحين يسألها أين هو؟ تُعيد التحديق في السماء ذاهلة، مُشيرة إلى الغيم.

يتبعها برفع بصره ثم يقول إنّ هذا ليس قطناً، بل بيوت الملائكيّين من البشر المخلوقين من ضوء وماء، تتحرك سابحة على الدوام تُطارِد بعضها بعضاً بحثاً عن ساكنيها الذين ارتحلوا إلى الأرض، وضلّوا طريق العودة، لكنهم حتماً سيعودون... إلى الوطن.

— أنت منهم؟

يُجيب وهو يشعر بالضّالة من سؤالها: لاااا... هؤلاء قلوبهم بيضاء مهما عُصرت... لا يشوبها صفار ولا غبش ضغينة.

تأكّدت بعد زمن أنه أحدهم، حين اختلّ توازنه من طعنة في القلب. تذكر أنّ والدها كان يُطلق عليه "ذو القلب الميت" لطيبته الشديدة، فحين قدّم يوماً وكلّ ما فيه يتقافز نشوة بالزّي الرسمي للضباط، سار وكأنّ هناك خطأ فاصلاً بينه وبين الأرض. كأنّ قدميه لا تمسّانها، وحين سمع هذه العبارة تخرج من فم أخيه، يومها فقط علّق:

— لم يعد ميتاً، كان كذلك وانتفض، كان الكلّ يقول إنه يوجد قلب في هذا الحيز، لكنني لم أشعر بوجوده ودفته وسخونة ضرباته وارتعاشته إلا حين عرفت يسراً، فعرفت ماذا يعني قلب بين الضلوع.

يومها قال والدها بقسوة:

- صحيح أنّ قلبك ميت... أنت إلى الحين تركض ورا أوهام

الجهّال؟!!

ارتعشت ملامحه حتى شعرت أنّ قلبه تفاحة حمراء تُخدش جوفها
فانشطرت نصفين. يومها تأكّدت أنّ والدها بلا قلب، ويومها أيضاً
شعرت أنّ عمّها حميدان ملاك، أو شاعر بقلب طفل.

خفيفة ومبتهجة كانت تنهياً لممارسة طقسها اليومي. تمرّغت في رتابة
يومياتها برضا، تعلو معه ابتسامة طيبة على ملامحها حين دخلت المطبخ
لتُفاجأ بالقطعة منزوية في أحد الأركان تشنّ في ضعف.

سرعان ما ألفتها وأخذت في الدوران يُمنّة ويُسرة كمن يبحث عن
ملاذ من وجع ما وهي تموء. أدركت أنّ عبد الرحمن حتماً هو من
أدخلها، فسارعت بإحضار إناء صغير دلقت قدراً من الحليب الدافئ
وقربته منها، ثم استدارات لإعداد وجبة العشاء.

ببساطة عاودتها الأفكار القلقة على عبد الرحمن، الذي أنهكه
البحث عن وظيفة حدّ الاستسلام للواقع والبحث عن بدائل لشغل
وقته، حتى قاده تشبّثه بالحياة إلى أن يشدّ الرّحال لنادي فنون القتال
الرياضي.

هي سعيدة به، سعيدة بهدوئه وتواصله مع الأقارب والجيران،
سعيدة بحرصه على الصلاة ولهفته على صلاة الجمعة، لكنّ سحابة

الوجوم التي باتت تتتابه في الآونة الأخيرة هي ما يقلقها، وخاصة أنه بات يتأخر أكثر من المعتاد على العودة إلى المنزل ليعود ومسحة شجن تعلو ملامحه، وكلما سأله أجابها بشقاوته المعهودة وهو يُسبِّل عينيه التي تضجّ بألم دفين:

— مع الشباب يا شباب إنت يا حلو.

انحنت نحو صنبور المياه، غسلت يديها وهي ترمق القطّة التي تشنّ بوجع دون أن تذوّق شيئاً ممّا في الإناء، وخرجت.

وعلى عتبات الفجر عاد عبد الرحمن تعلو حذاءه ذرّات غبار وملامحه كابية. لمع غرفة والدته مضاءة، تجاوزها ودخل إلى المطبخ. لفتت انتباهه قطع اللحم الصغيرة التي تناثرت، واحدة على الطاولة، وثلاث قرب القطّة التي أخرجت لسانها تمرّره على جسد أحدهم في عملية تنظيف.

ارتفع صوته منادياً، فتراكضت خطواتها ظناً منها أن مكروهاً ألمّ به. علت تعابيرها شفقة، موضحة أن القطعة الرابعة هي لجنين لم يكتمل نموه. طلبت منه إلقاءه في الحاوية الخارجية، وراحت تجمع أبناء القطّة ثم خرجت إلى ساحة المنزل وأمهم تتبعها في خوف.

اختارت زاوية ظليلة في ساحة المنزل وضعت أبناء القطّة فيها، بينما عاد عبد الرحمن وهو يلتقط بإحساسه الشفيف جزع القطّة على أنبائها، في يده اليمنى إناء الحليب، وضعه على الأرض ثم مسح على جسد القطّة التي نظرت إليه ثم أغمضت وكأنها تُعبّر عن امتنان تعجز أدواتها عن إيصاله.

وفي اليوم التالي، حين احتضنهما أنس الإفطار، رنّ الهاتف

المحمول في جيبيه، ليبدو اسم صديقه عارف فسارع بالرد:
- دحين تجي معايا تشوف المنطقة كيف محاصرة... دوبهم قفلوها.
- والجثة شالوها ولا للحين موجودة؟
- طبعاً شالوها اليوم تاني، بعدين إنت حتجلس عندك تحكيني...
والله أمشي وأسيبك.
- يالله أنا جاي.

التفت نحو أمه ودهشة الاكتشاف والفضول تتغافز في ملامحه:
- واحد اسمه حميدان من حي العشائر انقتل... بروح أتطفل!!
مارس الصديقان الغياب في أزقة حي العشائر الجرداء، دون أن
يسمح لهما بالاقتراب من مكان الحادث. سارا في الشوارع الترابية
الضّاجة بأنفاس العصبية القبلية حتى كادا يتنفسانها في الهواء الذي
يستنشقان.

حدّق عبد الرحمن في عيني صاحبه متأملاً ملامحه باحثاً عن طيف
يسكن فؤاده ويحنّ إلى رؤياه، بينما قرأت عينا عارف ملامح حيّ
العشائر الغاصّ بخليط متناقض من القبائل والجنسيات والبشر. نظر إلى
الشارع التجاري المكتظ بمطاعم المثلوثة والمطبي والمضغوط والبوفيات
الشامية واليمينية، والعمالة السائبة، والبنوك التي يتجمهر عليها البشر
في أم تغشى البصر حتى قبل فتحها.

همس باختناق:

- صخب!

ابتلعتهما "دواعيس" حيّ العشائر التي لا تنفك عن ضجيجها،
وسرعان ما لمحا الأقدام تتراكم مثيرة غبار الأتربة في الشارع الذي

لم تتم سفلته بعد في وجهيهما. كلُّ رفع ثوبه وربطه على بطنه وكمم وجهه بشماغه لاهثاً إلى جهة واحدة. رجال وشباب ومراهقون، الكلُّ يركض كالطريد إلى حدث يجهله الرفيقان.

عبرهما أحد المراهقين وهو يستحثهما على اللحاق بالحدث:
- ولد "مهيوب" صدم أربعة وهو يفحط في "النزلة"، والظاهر أنهم ماتوا.

مضى دون أن يلتفت وصوت سيارة إسعاف ودورية شرطة يملآن الفضاء قادمين من جهة ما.

تكتفت الأقدام التي تطوي الطريق للحاق بالحدث الطازج، فتأصل غيابهما، وركضا مع الراكضين.

طوق

نظر حوله حذراً ووشوش مطلق عمّا إذا كان متأكداً من أنّ أحداً لم يُشاهده وهو يُطلق الرصاص؟

أعاد مطلق تأكيده، ثم ذكره بالمسدّس الذي أوصاه حين كان في المشفى أن يحرص على التخلص منه، حيث تركه في السيارة. يهمس في أذنه أنّه كسره ثم قذف به في أعماق البحر.

حمل الأب جزعه وحزنه وغادر مطلق وهو يحثّه على الصمود انتظاراً للفرج، لكنّ الفرّج الذي يتحدّث عنه لا يعرف طريقاً إلى قلبه في لحظات مُعتمه غامضة كهذه.

عصره المُحقّق ظهراً بالأسئلة، غير أنّه ثبت على أقواله، "لقيته مصوّب عند باب بيتنا". كلّ ما فيه ينضح توتراً، وكلّما زاد المُحقّق في أسئلته، ازداد ارتباكاً وتضاربت أقواله، حتى كاد عقله أن يُشلّ والضابط يخبره عن وجود شاهد إثبات رأي حميدان أثناء دقّ الجرس.

يصمت. لا يعرف ماذا أضاف الشاهد المزعوم، ولا ماذا رأى! فما يذكره أنّ الشارع كان خالياً، ربما رأى الشاهد حميدان قبل أن يفتح

له الباب أو وهو يسير باتجاهه. هو متأكد أن الشارع كان خالياً تماماً. يستعيد ذهنه الصورة، يُقربها... يُكبرها... يُبعدُها... ليس سوى قطعة مكتنزة البطن التقت عيناه بعينيها ثم عبرت راکضة... وما عدا ذلك... فلم يكن هناك أحدٌ.

يُستعيدُ ثقته بنفسه ويُصرّ على أقواله أنه فتح الباب بعد أن سمع دويّ رصاص يخترق الفضاء، فأسرع به إلى المستشفى لكنه كان قد توفّى... هذه الثقة تنهاوى والضابط المحقق يوضح له أن الإنكار ليس لمصلحته لأن فيه تضليلاً للعدالة، وأن عليه أن يعرف أن أهل القتل سيطالبون بدمه.

تلاشى الغرور عند سماعه مفردة القصاص، باتت الدنيا أصغر من ثقب الإبره، وغدى الأمل في الخروج حليماً بعيد المنال.

وفي اليوم التالي وقف فهاد - والد مطلق أمام المحقق في انكسار واحترق دفين. حيرة تتأكله هل يدفع ولده للاعتراف أم يُحرّضه على مواصلة الإنكار، وشعور بالضالة والصغر بملاً روحه رغم نُبل الغاية؟!

أجاب عن سؤال للمحقق عما يعرفه عن حميدان القليل، أنه لا يعرف أكثر من أنه "خبل" وأنه يبحث عن أخيه منذ سنوات بعد أن تزوّج زوجته السورية، وأنه منذ ذلك الزمن وهو يعود بين فترات متقطعة لهذا المنزل الذي اشتروه منذ فترة قريبة من شخص كان يمتلكه بعد أن باعه حمود أخو حميدان له.

سأله المحقق عما إذا كان يعرف مكان حمود؟ فأجاب بالنفي، لا يعرف ولا يهتم أن يعرف، وما يهتم هو ولده الذي ظلم في قضية

كهذه من أجل "خبل" مثل حميدان.

شعر المحقق أنه في دوامة لغز، فعاود طرح أسئلته:

- عندك فكره لماذا تزوج حمود زوجة أخيه؟

- كل ما أعرفه أنها أجبرت حميدان على تطليقها، وبعد العدة

تزوجت أخاه، ثم ألا ترى أنك تبحث في الاتجاه الخطأ؟!!

التمعت عينا الضابط: كيف عرفت؟

ارتبك على فلتة لسانه: يعني حكاية حميدان وأخيه صار لها

سنوات... و...

صمت. تكسرت اللغة على شفثيه. فتحرك مؤشر في ضمير الضابط

ولزم الصمت للحظات ثم سأل عن مصدر معلوماته عن حميدان،

فأجابه أن كل البلد مصدره. كل المنطقة تعرف حكاية حميدان الخبل

الذي فقد عقله منذ تزوجت زوجته أخاه.

تنقلب ملامح فهّاد والضابط المحقق يُخبره أن عليه أن يعرف أنه

إذا ثبت أن ولده هو الجاني فسيقتص منه وسيُنَفَّذ فيه حكم الشرع.

تكسر شموخه، تهدلت كتفاه وعضّ على شفثه السفلى.

مضت الأيام سريعة والطوق يزداد على مُطلق الذي نصحه والده

بالاعتراف، فقد يُساعد ذلك في تخفيف الحكم عليه.

فدخل في غياهب هذيان عاصف، مسجى الجسد ملتصقاً بالجدار

ووجهه له. يتخيّل ساحة القصاص وهو يُقاد مُكبّل اليدين والجماهير

الغفيرة تشظي النظر إلى لحظة قطاف روحه، ثم وهو يجثو على ركبتيه

بوجه مواري والسيّاف من خلفه يتلو عليه الشهادتين.

يتجسّد المشهد في وعيه فيأخذ في الارتعاش مع تداعي ضربة

السيّاف في ضميره. يصير الدم يشخب من بلعومه و"يطشّ" مصحوباً
بشخير انفلات الروح تعبّر أفق ظلامه وتميل رقبتة، فيصرخ صرخة
هادرة تنطلق من أعماق روحه، تُعانق قلب أمّه المفجوع والذي ترنّ
أصداؤه في فضاء سرمديّ فيغرق في النحيب وينهمر حوارهِ الداخلي
الذي لا يتوقف:

حميدان...

رُبّما كنتُ ميتاً مثلك الآن، وربما كنت حياً، لست متيقّناً من
شيء، ربما كنت في القبر الذي يجاورك! قتلتك... فقتلتنِي،
أطلقت عليك رصاصتي فصرعتني بجانبك، غبت عن المشهد...
فسحبتني إلى جوارك، ها أنت تقف أمامي الآن مُسدّداً نظراتك إلى
قلبي... ترقد بسلام بينما أغوص في ظلمات تندلق منها همهمات
لا تتوقّف عن الضجيج تآكل صدري كدود لا يتوقّف عن السعار
والخشخشة.

لو تعرف كم أنت محظوظ... تنام قرير العين... مطمئناً، فلا
معاول تضرب في دماغك ليل نهار، ولا عرق يرشح من مسامك
ساخناً مالحاً، ولا كائنات غريبة، كلّها أياد وأرجل تعبّر أوردتك
وتهرش دماغك دون توقّف. لا كائنات لزجة هلامية تتهاوى على
جلدك وكأنه مستعمرة مباحة، تعال لتتحاكم... أنت الظالم...
لست أنا... أنت القاتل اليومي وأنا الضحيّة، تعال... أو خذني
إليك.

أشبع ناظريك ببثري الذي لا قرار له... ظلام دامس مُروّع، صراخ
ذبيح يتردّد في الروح ولا يرحها، والأفق سقط من سمائي وتلوّن

بغربان تنعق شوئمها فتزید ظلامی، تعال... کفّ عن مباغتتي هازئاً
بسقوطي... تعال... أو خذني إليك...

خذني...

تعال...

تعال...

ارتياب

”ما أجمل أن تبدأ صباحك بوجه يبتسم.“

قالها راشد حين دخل جعفر صامتاً بوجه مُعتم، وعلّق بحماسة فاترة أن أحد أعضاء اللجنة الفنية الدينية صعد الموقف ورفع الموضوع إلى هيئة كبار العلماء في الوزارة التي ارتأت أن إفساح كتاباً كهذا يفتح الباب على مصراعيه لانحرافات عقائدية، وعليه لا بدّ من معاقبة من أفسحه وألا يُكتفى بالاعتذار أو ذكر المبررات!

تنهد وغرق في صمت للحظات ثم استطرد أنه جاء قرار بنقلهم نقلاً تاديبياً إلى الجنوب، على أن يتم ذلك في مدة لا تتجاوز الأسبوعين.

صمت راشد مفكراً، ثم ارتفعت مُقدّمة حاجبه الأيمن وومضت عيناه وهو يُعيد قراءة تضاريس مجتمعه الذي يُصرّ على عدم التخلص من الموروث الذي تربي عليه:

– الأمر لا يخلو من الصعوبة من ناحية عائلية لكن لكل شيء ثمنه وسعره، ويتحتم علينا كمرحلة أولية رفع تظلم وانتظار نتيجة هذا التظلم، فقانوناً تلزمنا ثلاثة أشهر لتنفيذ هذا القرار لا أسبوعان، فإذا

لم يؤدِ إلى نتيجة، فإن علينا مباشرة العمل، وحتماً هناك تجربة إنسانية تُثري بانتظارنا.

قرأ جعفر بحب عميق ملامح صديقه المندسة في النصوص برحيق تأنيب ضمير أنه ورط صاحبه معه. تفرس تقاطيعه... عادت به الصورة إلى المنازل القديمة... إلى البيوت الطين وأغصان الرطب المتدلية في الأزمنة الآفلة.

راشد في السابعة من خطى العمر، يسير في أزقة "سنابس" قريباً من منزلهم المجاور لمنزل جعفر، يتقافز قرب والده وفي يده بالونات ملونة، ينظر إليها بنشوة وهي تترنح بالحبل الذي يطيحها يمينا ويساراً مع خفقات الريح التي تتسلل لثيابهما وتنفخهما كبالونات معبأة بالهواء. ينظر إليها جعفر الذي يمسك بيده الطفلة يد راشد الأخرى، وما إن تضحك الشمس حتى يبدآن يومهما في طقوس ملونة من الضحك والمرح متجهين للمدرسة والفصل ذاتهما.

وحين تنامي العمر وتبدلت سماحة القلوب وارتدت الحياة أردية الظلام، تقاسما الحلم وعذب الأمانى ورغيف الدرب الذي لم يخل من منغصات الوشوشات التي تتهامس على صحبتيهما في استهجان رافض لا يمنح صداقتهما إلا مزيداً من التجذر.

يستعيد سعار الوعي القاصر لأحدهم وهو يفرق التصاق الصديقين الماضيين، حين أفلقتة صحبتيهما.

يتنحي براشد جانباً:

– أضعت الدرب وانحرفت عن المسار... عامل بالحسنى ولا

نصاحب.

- هو جاري وصديق عمري والطفولة.
- "لكم دينكم ولي دين".
- الله يجزاك خير لكنه مُسلم لا يهودي وحتى لو...
- يلمح جعفر أياديها وهما يتجادلان. يبلغه صوت الرجل يعلو وهو يردّ على تعنت راشد وتمسكه:
- أنت تخرج عنا... انتبه.
- يلوح له راشد بيده أنّ هذا ليس شأنه ثم يمضي ويتركه...
 تُراب روحه يغصّ بالملح وينزّ قرفاً وحرقة تاكل صدره. يتقاطر
 وجعه وملامحه لا تزال تحتضن ملامح صديقه وتحتضنها:
- ورطتك؟
- لست قاصراً. كنّا مقتنعين بما نفعل، لا تؤنب نفسك.
- لكنّ العبارة لا تمسح ما علق بروحه من مرارة. يتسلّل ما في روحه
 إلى روح راشد الذي رفع بصره قائلاً:
- زقزقة صاحبي اليوم حزينة... واصلتني!
- الله عليك يا فتّان... أحبّ شاعريتك.
- أنت طول عمرك ما انحنيت... انتفض... أعرفك نسراً.
- محتاج هواء نقي... مخنوق.
- طيب روح البيت وسأخذ لك إذناً.
- بدون كلام ملّم جعفر أوراقه وانسحب بصمت، غارقاً في الأفكار
 الكابية وقد انطفأت فوانيسه وخمد فتيلها. يزفز كمّاً من الهواء احتبس
 في صدره وهو يخرج من مبنى الوزارة متّجهاً إلى سيارته:
- هل كنّا مخدوعين بالغد الواعد فأسأت قراءة ملامحه؟ تراني كنت

حالمًا فجنحت؟ هل انفتاحي وراشد على مستوى الذات وسكونه في
تلايف الروح ضللني وغيب حقيقة كون المجتمع يُمارس طائفية فجّه
تعامت عنها بزعم الوعي والثقافة؟

يقذف بجسده المنهك في شحوب سيارته، يقوده قلقه وضياح
أفكاره. ينظر إلى سحته في مرآة السيارة، تعكس المرآة صُفرة ملامحه
وتكسر شراع الأمل في نظرة عينيه الخابية، وإسفين انكسار دقّ أشرعته
المتهاوية في قلبه.

باتت النظرة إلى الغد في عيني جعفر مُحَمَّلة بالارتباب وأوزار الغربة
التي تتناول، ما عاد الفؤاد رياناً قادراً على تعاطي الحلم. غمر روحه
الخوف من المصير الغائم وقد باتت رائحة القلق تُركمه وتهبه أرقاً
أضنى وسادته.

يرتجف ويتصبّب عرقاً

كانه لم يعبر.

وكان قلبه الذي نبض بأعذب المشاعر وأحرّها لا قيمة له.
فالمشاعر قيمتها عند مُلأكها.

ساحة العزاء ممتدة في منزلٍ مصلح أبو منصور والد أمل وهو
الأخ الأكبر لحميدان، لاستقبال المعزّين. هو عزاء واجب فلا أحد
يعنيه حميدان "الخبل"، لا حياته ولا موته. هو واجب شكليّ حتى
إلى مصلح الذي لم يابه يوماً لشأن أخيه أو يأويه من قارعة الطريق
حين غاب عقله. واجب عزاء ونحن خير من يُقيم العزاءات ويُجيد
النحيب، حين عفت سماواتنا عن البهجة، وغادرتها النوارس بكلّ
ما تحمله من عشق وشجن وتوق إلى التحليق والحرية.

وغصّت صالة النساء بالمُعزّيات، وعلى غير العادة لا أحد ييكي
حميدان، خبل... أراح واستراح، يتعازمون على الاحتفاء بذبحه
ويتداولون شرب الشاي، فقط أمل التي انتبذت ركناً قصياً محتضنة
ركبتها وكفّها على مقدمة جبينها، بينما بقايا دموع ملتصقة
بأهدابها... تستعيد عمراً معه.

... أمل في تباشير المراهقة، في الثانية عشر من العمر، نضرة، جميلة، ومتفتحة للحياة، تُوشوش عمّها الذي بدأ في التحوّل إلى شخص منطو، صامت على الدوام أو يُحدّث نفسه بصوت عالٍ للحظات وكأنه يتحاور مع أحد ثم يعود إلى قوقعته. تذكر أنّ وضعه آلمها فاقتربت منه ووضعت كفّها الصغيرة تحت ذقنه:

– إيش فيك؟! مريض؟!!

نظر إليها وكأنه يحاول العودة من جبّ عميق. تأملها بشكل أثار في داخلها مشاعر الخوف. بدا وكأنه ينظر إلى عدوّ يمتلئ بالحقد عليه... تراجعت خطواتها وهي تقول:

– يمّه... صرت تخوفني!

ثم عادت ووضع يدها تحت ذقنه:

– أنت إيش فيك؟

لمستها الحانية حرّكت شيئاً في داخله فأجهش في البكاء، حتى شعرت بسحابة حزن تنتقل إلى روحها فاحتضنته:

– أنت زعلان؟!!

– بعد ما نفّذت طلبها وكتبت البيت باسمها، تبغى الطلاق...

نكدت حياتي... غدرت فيني...

يقطع ذكرياتها انحناء بعض النسوة على خدّها لتعزيتها بالتناوب، علّقت الأخيرة هامسة:

– قولي للوالد يطلب فدية مليونين أو ثلاثة... استفيدوا يا

بنتي.

انسلّت كالريشة من حضن المرأة وهوت إلى الأرض كلّوح جافّ.

صعقتها العبارة ورخص روح الإنسان، بينما تجمعت حولها النسوة في دهشة:

– عمرك أطول، تقتلين نفسك من أجل ”خبل“... ذهب في رحمة ربه.

– بكره سترك لكم بالفدية كنز، ستعيشين أنعم عيشة، الله يرحمه.
– لم تستفيدوا منه حياً استفيدوا منه ميتاً.

تنظر إلى البعيد وصورة واحدة عالقة بذاكرتها: حميدان يسير في الشوارع التي باتت راصداً حقيقياً لتاريخه بعد أن غدت ملاذه. بهيئته المنكسرة وملابسه التي علاها صفار الأوساخ بينما شماغه ”رزّه“ وقد انتحل عوده وترك ذقنه في غير تشذيب أشبه بالزغب مُحدثاً نفسه بصوت عالٍ كأنّ هناك من يتحاور معه بحدة. يسير كحيوان برّي وقد ارتوت جروحه بملحها، دون أن يشعر بالخارج مقدار شعوره بالعوالم داخله، وزفة ساخرة من أبناء الحي تُلاحقه بعبارات ساخرة، كثيراً ما تنامت إلى قذفه بالحجارة وعلب الكولا الفارغه، وهو يلتفت يميناً وشمالاً مطيحاً يديه في مشيه وقد بات عالمه الداخلي بكلّ الأوهام التي فيه هي الطافية على السطح... وهي الواقع المعيش.

عاش أياماً مُختلياً في البراري، يرتجف ويتصبّب عرقاً. اختلط بكأوه بسيلان أنفه فلا يُفرّق بينهما. دم الخيانة الراءف أحال الكون إلى صمت مُطبق ينتشي معه صديد الذكريات فيفيض قيئاً وغثياناً صاخباً. مهما يصرخ يبقى صوته حبيس قلبه، فتداخلت الحقائق بالكوابيس في ذهنه، أخذ عقله بعدها تذكّرة ذهاب... بلا عودة.

تعانق مع الأمل حياً في أن يبلغ أخاه، فقط ليزيح عن كاهله حمل

سؤال أثقل صدره ليواجهه به، كيف تَقَرَّم الدم أمام الشهوة؟! فتبدى له من عالمه البرزخي ما حدث حين كان سائحاً في الأيام الخالية، واستدار عنه بلا ألم... أو انتماء... بات شأنهما لا يعنيه في عالمه الأرحب، بعد أن أمضى حياته مُصرّاً على بلوغ هدفه، لم يمنعه عقله الذي غاب، ولم يفتر رغم كونه منبوذاً من مجتمعه ومطارداً من رجال الأمن، كونه المخرب الذي تجاوز بفوضويته أيّ التزام تجاه ذاته وتجاه الآخرين، فلم يبقَ محلّ إلا وهشّم واجهته ولم تبقَ سيارة إلا وحطّم نوافذها، لا لشيء ولا لهدف، لا سبب ظاهر لذلك، ولا يوجد من يعنيه تفسير الأسباب الكامنة، فنحن لا نبالي إلا بالقشور، أما الكامن لا نُجهد أنفسنا بالغوص فيه، ربّما حتى لا نُكلّف أنفسنا عناء البحث عن إعاقاتنا التي تطرأ علينا.

حميدان... فقد ذاته... وكان فقدانه لذاته وجوداً بحدّ ذاته، أراد أن يخلق علاقة حيّة بينه وبين ما حوله فلم يُسعفهِ في ما بقي من وعيه سوى هذا الشكل... لعلاقة كهذه.

ضنى الحواس

أزقة سيهات الضيقة معجونة بثرثرة ممتدة في الفضاء، بينما سماؤها مصفرة على الدوام بصفرة كامدة.

من الزاوية اليمنى يخرج السيد حبيب الوسيم (بو جعفر) بابتسامته النابضة بالطيبة والتسامح على الدوام. يُغلق الباب وهو يوصي ابنته زهره بالذهاب مع والدتها "الملاية" لحضور الفاتحة بعد صلاة المغرب في الحسينية.

ينقلت من أسر المنازل الصغيرة المتواضعة والمُتراسة قرب منزله، حيث تنتصب على يمينه ورشة سيارات ثم منعطف ضيق ينحدر إلى الحسينية، وتقف مقبرة سيهات الكبيرة في الشارع المقابل. يلمح أمامها الطاولات الممتدة لشباب يبيعون الأشرطة الدينية، واللطميات وبعض الكتيبات.

يجلس على بقعة إسمنتية. يرفع وجهه الأبيض الطافح بالبشر والممتلى بتعرجات زمن لم يرحم بياض قلبه وروحه الزاخرة بمطر أليف، فوسم بأحداثه العظام خارطة ملامحه. يُشعُّ بريق النهايات من عينيه الثابتين وهو يعبر بهما على الناس المتجمهرين لشراء الأشرطة.

يعبر شاب بيده كيس لجمع تبرّعات من المُشترين والمارّة لمساعدة أحد المعوزين.

— رَدّت عانيّه... يا الله بويه...

— ماجورين خيوو... رحم الله والديك.

صوت الرادود حسين الأكرف يتمدّد في أفق المغيّب في بُكائيّة للحُسين:

ما غيرك ذوّب عيني

عيني من أنصارك... ثارك... تحمله

والمدمع نارك... نارك... تهمله...

ينحرف بصره نحو باب المقبرة الأسود الكبير، ثم يُطرق. يلتقط عوداً وينكث به الأرض بهدوء. يمتدّ بصره مرتفعاً نحو أعلى المقبرة ذات الجدران المُرتفعة، يلمح علماً أسود يرتكز على قمّة المقبرة، يُرفرف العلم وعينا بو جعفر تتابعان رفرفته. العلم الأسود تتسع رقعته... تتسع... يتقعر وسطه... التراجيديا الدمويّة لمصرع الحسين تتوسط العلم... المشهد السجالي يتجسّد على صفحة الامتداد الحالك، تتداخل الصور في مشاهد بطيئة:

٦١ هـ تعبر أفق المشهد... أقدام الحسين تسير في أرض صحراوية والشمس تحتضن السماء. يزيد بن معاوية يرفع يده طالباً البيعة. ضوء الحسين يُضيء العلم. يستدير رافضاً إعطاء البيعة ليزيد. الحسين يُرسل ابن عمه مُسلم بن عقيل ليتقضى الأمور. يزيد بن معاوية في الشام يُرسل إلى عبيد الله بن زياد ليمنع أهل الكوفة من الخروج عليه مع الحسين.

مُسلم بن عقيل يخرج على عبيد الله بن زياد ويحاصر قصره بأربعة آلاف من مؤيديه. رجال مُسلم ينصرفون عنه واحداً واحداً. الشمس تجنح إلى المغرب. مُسلم بن عقيل وحيداً. عبيد الله بن زياد يأمر بقتله. مُسلم يطلب أن يُرسل رسالة إلى الحسين. رسالة مسلم تتوسط المشهد: "ارجع بأهلك ولا يَغُرَّنكَ أهل الكوفة فإنَّ أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لكاذب رأي." "

تصل الرسالة إلى الحسين. الصحابة يمنعونه من الخروج من مكة لكنه يخرج. ابن عمر يعانق الحسين باكياً ثم يلوح له "أستودعك الله من قتيل." الحسين يلتقي في كربلاء بخيول يزيد بقيادة عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن.

نهر الفرات يسطع كخلفية للحُرّ بن يزيد الرياحي وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وهم يتجادلون بحدة. الحُرّ يصرف وجهه فرسه، وينطلق إلى الحسين وأصحابه. الحُرّ يقلب ترسه ويسلم عليهم، ثم يكرّ على أصحاب ابن زياد فيقاتلهم. يسقط الحُرّ مضرباً بدمائه.

رجال الحسين يحيطونه من كلّ الجهات في محاولة باسلة لحماية حياته. يتساقطون حتى آخر رجل. الحسين يزار كالأسد وحيداً إلاّ من إيمانه. شمر بن ذي الجوشن يرمي الحسين برمح فيُسقطه أرضاً. بن ذي الجوشن يَجْزّ رأس الحسين. غربان سوداء تتطاير فوق الجثث ويعلو زعيقها. يُحمل رأس الحسين إلى يزيد. يدخل ورجاله في دائرة تضيق عليهم وتُعتم تدريجياً. يتوهج الأفق. يتابع نهر الفرات جريانه الأحمر.

يُغمض أبو جعفر عينيه وصوت آذان المغرب يرتفع في سماء

سيهات. ينهض والصورة التي سحبتة تتداعى ظلالها في روحه وهو يهمس "اللهم صلّ على محمد وآل محمد".

وتوطدت صلة أم راشد بكائناتها الصغيرة. هرعت لالتقاط أحد القطط الصغيرة كان بطنه قد انتفخ يوماً تلو الآخر ثم مات. لحقت بها أمّه وهي تموء.

ارتفع صوتها منادية عبد الرحمن ليُلقي به في الخارج حتى لا تراه أمّه، فسألها عن سرّ موته:

- يَمُك يبدو أنه لا توجد بهم فتحة خروج، يرضعون فقط ثم لا يتم التخلص من الفضلات لعدم وجود فتحة... ومات.

- كيف لا توجد فتحة خروج!!؟

تُشير له على الموضع، فيقول بأسف:

- طيب ألم يكن هناك حلّ بالإمكان عمله كي لا يموت؟

- يَمُك أنا ما أعرف.

القطّة تموء حولهما يحرثها الجزع الغريزيّ على صغيرها. يشعر عبد الرحمن بالحزن من أجلها، لكنّه يُسارع بأخذ القطّ المتوفي ويُلقي به خارجاً. يعود ليُقبّل أمّه في خدّها قُبلات سريعة متتالية بشقاوة وهو يُخبرها أنّه خارج إلى النادي الرياضي... ثم يلتفت لها مداعباً:

- حين أقدم على الزّواج ابحتي لي عمّن لها حدود متورّدّه مثلك.

تقذفه بمنشفة في يدها:

– ألا تُكفّ عن شقاوتك.
يعود أدراجه ليقبّلها مرةً أخرى ثم يعضّ على شفته السفلى وهو
يسبّل عينيه:

– أحبك أنت يا حلو يا أسمر.
تتetchش أوردتها وتضجّ سعادة بروحه الرحبة المبتهجة على الدوام
فتحتضنه، ويتملّص من أحضانها:

– أووو... شوي شوي من تظنينتي... الرئيس؟؟!!
تُعاود قذفه بالمنشفة وهو يخرج ضاحكاً وصوتها يتبعه:
– هين يا ولد الرئيس... أوريك.

الركن الملاصق للجدار

مشغولة بترنيم أغنية حزينة اسمها حميدان، راحت تستعيد أمسه وهي تنزل الدرج صباحاً مع ابنها يحيى لتصحبه أولاً إلى مدرسته القريبة ثم الذهاب إلى مدرستها.

عبرت الصورة التي شهدتها مراراً في سوق النساء الكبير حين كانت تراه في ساحته يفرش الأرض وقد لم قدميه في جلسة القرفصاء وكأنه في بيته لا ييالي بالعابرين المتطفلين، مُحتضناً جهاز تسجيل صغير يهتزّ معه ويترنم مع صوت أم كلثوم دون أن يعترضه أحد رغم أنه يجلس قرب مسجد السوق وقريباً من تكيّة للتسجيلات الدينية، ربما لأنه قرب بيت من بيوت الله، طوّقه رحمته ولم يؤذه في هذا الموضع أحدٌ خاصة حين ينساب صوت "الستّ" في الفضاء. قلوب مرتادي ذلك المسجد حتماً معجونة بالبياض والرافة.

تفوح رائحة بخور في ذاكرة أمل يتصاعد عقبه من الباعة النسوة اللاتي افترشن ساحة السوق قرب حميدان، ودهشة تنزع في صدرها كيف خائته ذاكرته في كلّ شيء حتى التعرّف عليها ولم تخنه في نسيان الخيانة المزدوجة، حين كسرت حواء ضلعه بمعول من نار.

جرح غائر لا يفتأ يذكره بل هو ماؤه وملحه. يُغمض عينيه ويتمايل
وترانيم حنجرتة التي نُحِتَ فيها كلَّ حرف من ذات الأغنية تترنم
باللحن ثم الغناء الذي تُلي من شغافه وبلل روحه. يتبدل لونه وتطفو
على ملامحه أنثى سقطت وقلب جريح، وتطوف في عينيه نسائم
مُعشبة ثم تعصف ريح تشله في وجعه فلا يبرحه:

أكاد أشك في نفسي... لأني... أكاد أشك فيك وأنت مني...
يقول الناس إنك خنت عهدي... ولم تحفظ هواي ولم تصني
وأنت مناي أجمعها مشيت بي... إليك خطى الشباب المطمئن
يمد أذرعتيه ويميلها مُحَلِّقاً لا يبصر سوى عالمه: آآآ... آآآ... آآآ...
ثم يخرج عن اللحن وعن باقي الأغنية مكرراً مرّات عديدة وقد
أوغل في جرحه:

يقول الناس إنك خنت عهدي... ولم تحفظ هواي ولم تصني
وحين تعود العبارة التي تلامس وجعه يعود إلى جو الأغنية:
وكم طافت عليّ ظلال شك... أقضت مضجعي واستعبدتني
يُحَلِّق في عوالمه دون أن يُبصر المتجمهرين حوله أو يُعيرهم أدنى
التفات:

أجبني... إذ سألتك هل صحيح... .. حديث الناس...
خنت... ألم تخني؟

حين تصل الأغنية إلى هذا المقطع يلتقط جهازه ويقف. يدور حول
نفسه مكرراً بوجع طاحن ودموعه تتهادى على وجنتيه:
أجبني... إذ سألتك هل صحيح... .. حديث الناس...
خنت؟... ألم تخني؟

خُنت...؟

ألم تخنني...؟

ثم ينطلق في ردهات السوق راكضاً دون أن يعترضه أحد المارة
فقد اعتادوا عليه ومن لم يعتاده يلزم الفرجة جرياً على ما يراه من عدم
اعتراض أحد له.

تبتلع قهرها حين بلغت المدرسة الثانوية. تُحيي الطالبات ثم تضع دفتر
التحضير، فتباغتها صالحة، رِيانة الأنوثة، الشهيرة باللقافة واستعراض
العضلات رغم طبيبتها وكونها "راعية فرعة" بين زميلاتها:

— أبله فيه طالبتين جدد.

تلقت إلى الأمام وهي تنظر إلى صالحة التي تشير نحوهما:

— أبله أليسا الحلوة هذه... من جماعتنا من الجنوب واسمها
زينة وهي اسم على مُسمى، مثلنا جميعاً أهل الجنوب، الحَلَى والقَبْلَه
فيينا على رأي بدرية راعية القصيم، وأم عيون عسلية التي في الآخر
وتُشبه الممثلة ليلي فوزي بس على حجم صغير اسمها نشمية وهي
من الشمال.

تبتسم أمل بهدوء وبمغزى يصل صالحة:

— إن شاء الله بس يكونوا شاطرين وما يتعبوني؟

— أبله لك عليهم... هُم هَه... نُص نُص.

تستكين ابتسامة أمل على شفيتها وتلمح الابتسام على وجوه
الطالبات وهي تسير في الفصل لتأكد من حل الواجب الذي طلبته
قبل إجازتها الإجبارية.

تمرّ على عجل حتى تبلغ طاولة منى، ذات الشخصية القوية كما

صالحة وإن كانت أكثر وقاراً، وذات أنوثة متفجرة رغم محاولتها طمسها. بدينة بثور كبيرة في صفحة وجهها وبعض الشعر الخشن في ذقنها.

ترفع منى رأسها وهي تتأمل ملامح أمل التي تنظر إلى الواجب. نظراتها على صدر أمل وخصرها ثم وكأنها بهدوء تستنشق رائحتها: – أبله إيش اسم عطرك؟

تُفاجأ بالسؤال لكنها تجيب بهدوء دون أن ترفع رأسها عن الواجب: pleasure بليجر،

وتُكمل سيرها للركن المتبقي الملاصق للجدار، بينما تتبعها نظرات منى وهي تقوم بحركة استنشاق عبر عطرها وتنظر إلى صالحة التي فتحت عينيها على اتساعهما وهي تلمح إشارة منى لها وتدخل شفيتها إلى الداخل ثم تعض على السفلى وتتهدهدها مسة إلى صالحة: – مووت.

تسارع صالحة وكأنها شعرت أن منى ستسرق الأضواء منها قائلة: – أبله وش معناها ple.....؟

تعجز عن نطقها فتكمل بثقة:

– اللي قلتيها.

تردّ بهدوء وهي تُصحح الدفاتر دون أن تلتفت أو ترفع رأسها: – يعني بهجة... وانهضي على السبورة لتكتبي جملة فيها ماضي

مستمر؟

وكان صالحة وقعت في مطب تردّ:

– ما احنا كنا كويّسين، ليه يا أبله بس...؟ أبله والله أني أحبك.

يضجّ الفصل بالضحك، بينما تمرّ أمل على نشمية الطالبة الجديدة،
تمسح على كتفها بحنان لعلمها المسبق أنها لم تحلّ الواجب لعدم
وجودها حين طلبت ذلك ثم تعبرها قائلة:

– وأنا أحبك يا صالحة، لكنك ستكتين جملة على السبورة فيها
ماضي مُستمر.

– مُصرّة يا أبله... يعني ما فيه مجال للتفاهم؟

تلقت نحوها بحسم:

– مُصرّة يا صالحة، ولا تضيعي الوقت.

– بصراحة أبله أنا ما أعرف.

تتعالى أصوات الطالبات مع رفع أيديهم لوضع الجملة. تُشير
أمل بيدها على زينة التي تقف وتجب قبل أن تخرج على السبورة،
وبحماسة ترد أمل:

– excellent .excellent .. أحسنت، اكتبها على السبورة...
وصالحة انتبهي لأنني سأسألك مرة أخرى، والباقي يغلق الدفاتر وينتبه
للسبورة.

تعود زينة إلى مكانها، وتتجه أمل إلى السبورة لشرح الدرس
الجديد.

ورغم ضيق مساحة الحلم في لحظات الدرس، إلا أنّ ذلك لم يمنع
منيرة الطالبة الحاملة من التحليق، فراحت تخاتل العيون وتسحب
كرّاستها السريّة من الدرج بهدوء وتفتحها على صورة شاب على
مشارف الثلاثين، أسمر... ذي نظرات تُشعّ ذكاءً وجاذبيّة. كانت
قد سلبت صورته من غرفته أثناء غيابه، وتغافلها لأمّها وأمه في زيارة

لهم وهم الجيران الملاصقين لمنزلهم وإن كانوا أكثر عوزاً وحاجة رغم
سكنهم في حيّ راقٍ، بقايا عزّ لم يدم حين لم يدم لربّ البيت اخضرار
فيه، فغادر مبكراً حيث الحياة الباقية.

تشرّد في الصورة وهي تتحسّس ملامحه، ثم تنظر إلى النافذة مُحمّلة
الغيب حلماً يندسّ في أحداقها. تنظر إلى الأفق، تُسافر خلاله حيث
يسكن فارسها، باب منزلها يلتصق في أحداق الذاكرة. نافذة غرفتها
في الطابق الثاني حيث تقف دوماً كي تراه عند ذهابه وإيابه. تتذكّر
مشيته الواثقة... وجهه الذي يشي بالتسامح... وابتسامته.

تقرب الصورة الحقيقية. يفتح الباب ويخرج متوجّهاً لسيارته.
يرفع وجهه ليلتفت على نداء خلفه:

– أحضر معك دجاجاً ولحماً عشان القطّة... اهترأت عظامها

من التونة.

يتسم وهو يرفع يده مُلوّحاً، ثم يتعكّر ما بين حاجبيه وهو يجنح
إلى مطاردة أفكاره:

كيف يصدر قرار فصل لنا ونحن لم نعترض على تطبيق النقل؟!
رفعنا تظلم وكنا ننتظر الردّ، صحيح تأخرنا في الذهاب لكن من
الطبعي ذلك، فأسبوعان فترة غير كافية لتغيير دفّة حياة، إضافة إلى
كوننا ننتظر نتيجة التظلم!

يتجه نحو طريق سيهات التي انتقلت إليها عائلة جعفر قبل ثمانية
عشر عاماً وانتقلت عائلة راشد إلى الدّمام ورأسه يضجّ بالأفكار.

يعبر في طريقه المدرسة الثانوية التي تدرّس فيها أمل ومنيرة الطالبة
الحاملة. بنت الجيران التي تهواه دون علمه. يقف بصره على لوحة

المدرسة ثم ينزلق بصره على باب المدرسة المفتوح. حارس المدرسة يقف أمامه ويبدو أنه يُحدث إحدى المدرّسات التي تتوارى خلف الباب مادةً يدها بنقود لإحضار إفطار لها ولزميلاتها. يتناول المبلغ ويُغلق الباب وتعود أدراجها وجرس الحصة الثانية يدق معلناً بدء الحصة الثالثة.

تتسارع خطواتها فلديها حصّة في صفّ أوّل ثانوي/ ثاني حيث صالحة تتحمّس ذقن منى الخشن قائلة:

– والله ”الحلاوة“ أحسن لك... يا أختي الموس يخليه ينبت خشن كأنّه ذقن رجال.

– وش تبغيني أسوي؟ عجزت... أنزعه اليوم بعد ثلاثة أيام ينمو من جديد... تعبت.

تدخل طالبة أخرى:

– الأفضل أن تذهبي إلى دكتورة تُنظم لك عمل الهرمونات، واضح عندك اضطراب هرموني.

تردّ صالحة وقد اتّقد خيالها ومدّت سواحله جهة الأرض فمواضيع كهذه تستهوي أنسها:

– أقول، واسألها بالمرّة يصير تتحوّلين ولد. يمكن تكون هرمونات الذكورة عندك أكثر وتحوّلين، وبعدين تدورين عن بنت حلال تتزوجينها وطبعاً تختارينني لأنني صديقتك... ولو أنّ أهلي ما يوافقون... لكن ما عليه عشان خاطر عيونك... اتحداهم وأتزوجك ونتصدّر صفحات الجرايد.

– ومن قال لك إن تحوّلت باختارك؟! لو تحوّلت باخذ ثأري من

الرجال كلهم، باعرف كل يوم بنت، وأتقابل معها وأوعدها بالزواج
بعدين اتركها حتى تترجاني وتكتب في أشعار وأنا "صافطها"، يعني
أول ما أصير حرّة أروح أتزوج! صبح ما عندك سالفه!

– أفااا، يا ذكية إنتِ كذا انتقمتي من البنات مهو من الرجال،
خلاص لا تتحولين... أنتِ إن تحولتي تنحرفين، خلّك معنا "أزين"
على رأي بدرية القصيمية، صبح يا بدرية؟
تردّ بدرية بتلقائية:

– والله أزين له تصوير رجّال، وشهو له عوار القلب مع الحرّيم.
تدخل مُعلمة التاريخ مقطبة الجبين. تضع دفتر التحضير وتأخذ
نفساً عميقاً وتنفث غضبها:

– أنا شفت بنات وقحات وغير متريّيات لكن مثلكن... لم أر.
تتلّف الطالبات بعضهم إلى بعض في دهشة بينما ترفع صالحة
يدها محتجة:

– لو سمحتي أبله نحن متريّيات.

تصرخ بعصبية:

– ما أبغى أسمع صوت واحدة فيكم، قلة الأدب هذي لازم
ينوضع لها حد.

الطالبات يتبادلن النظرات بحنق ورفض، بينما تنفلت منى قائلة
برودتها المعهودة:

– والله لا احنا غير متريّيات ولا قليلات أدب.. واحترمي نفسك
يا أبله.

تنفلت آهة رعب من الطالبات على عبارة منى بينما تثور دماء

الغضب في رأس المعلمة التي وضعت يديها في خصرها تهتز انفعالاً:
- قومي واقفة.

تردّ بهدوء وتحد:

- ماني قايمه... احنا مش قليلات أدب... ماني قايمه!

تعبّر في ذهنها تعاميم وزارة التربية والتعليم التي تقف عائقاً بين المعلمة وبين أن توقف طالبة كهذه عند حذّها، فتلوذ بالصراخ مدارية عجزها:

- قليلات أدب ونصّ، وإلاّ إيش معنى أن تكتب طالبة على جدار الفصل من الخلف "طرز في أبلة فتحية الشمبانزي" إيش أقول عنها... مؤدبة؟... والثانية التي ألصقت صورة راشد الماجد في قلب كراستها وكاتبة أسفلها أحبك... إيش اسمه هذا... أدب؟؟!

ترفع صالحة يديها إشارة انتباه:

- أبلة إنتِ عمّمتي، وحده كاتبة طرز فيك كيف عرفتني من هي؟! ويمكن ما تكون حتى من فصلنا! ليه تعممين علينا؟ بعدين اللي حاطه صورة حبيب الكل راشد الماجد، هذا شأنها وما هو شأنك، بنات مراهقات يعبرن عن مشاعرهن، تُدخلين نفسك في شوئنا ليه! نحن في سنّ خطرة، فورة وثورة الأنوثة.

تُصفيق منى لها وتتبعها بعض الطالبات في تصفيق حادّ لصالحة التي فردت ظهرها وقد أخذت وضعها الاستعراضي، بينما ذابت شخصية المدرسة وحارت كيف تخرج من هذا الموقف بكرامتها، فلم تجد سوى أن تُحافظ على عصبيتها قائلة:

- والله لأدفعكن الثمن غالياً.

تتجه إلى مقعدها قائلة:

– افتحوا على (تاريخ الدولة العباسية) واعتبروا الدرس شرح وكلّ الدروس التي تليه في هذا الشهر وستأتي في الامتحان.

تردّ منى ببرود:

– ما تقدرين... والله نشتكيك.

تشعر بالمهانة والاستفزاز من عبارة منى ويفور مرجلها، فتتجه نحوها تشدها من زاوية كتفها:

– قومي... قومي واقفه.

قالتها وهي لا تعرف لو وقفت منى ماذا ستفعل بعد ذلك، لكن منى بقيت مُتصلبة في كرسيها.
تعاود شدّها صارخة:

– قومي واقف....

يقطع حدة الموقف دخول المراقبة:

– أوقفي عليهن إحدى الطالبات وتعالى بسرعة... (جاءت المشرفة).

تركها بحركة تدلّ على الاحتقار لتنتقم لذاتها موجهة حديثها لإحداهن:

– قفي عليهن واكتبي اسم من تتكلم بصوت عالٍ أو تتحرك من مكانها.

تخرج وتتبعها هزيمتها وثرثرة الطالبات، بينما ترفع منى ببرودة قاتلة أذرعها ليتناوب رسغها على طرق نوافذ جبينها في حركات متعاكسة ساخرة، للآزمة الشهيرة لشعبان عبد الرحيم (شعبولا):

— هيبه... هيبه... هيبه...

ما بخفش وانت عارف... أنا ممكن أعمل أيه
أنا اللي بيعني أبيعه... ما اندمش فيوم عليه
صحيح أنا قلبي طيب... صحيح مليان حنين
بس اللي يسييني أسيه... أنساه لو هو...
الفصل في صوت واحد وأذرعهن تتناوب أرساغها على الجبين
في حركات متضادة:
— أبيه.

منى: أنساه لو هو؟

الفصل: أبيه.

يضج الفصل بضحك هادر.

إيقاع

وعلى عتبات رخام حيّ طلال يفتح راشد الباب الخارجي لداره.
يدلف إلى الصالون الذي تروي مساحات سكونه حجم السلام في
صدور ساكنيه.

يتسرّب قلق ينزّ وشوشات غامضة وأغنية لعبدالحليم مرتفعة
الصوت تنتهك ألفة السكون من حوله قادمة من غرفة عبد الرحمن:

... وعانقتني... وألقت... برأسها فوق كتفي

تباعدت وتدانّت... كإصبعين في كفي

ويحفر الحب قلبي، بالنار، بالسكين...

وها تف يهتف بي: حذار يا مسكين

حذار يا مسكين.

وقف لشوان أمام باب غرفة عبد الرحمن الموصدة حائراً. آنس في
جوانب القلب أمل يموت. طرق الباب وفتحته ببطء. بلغته الكلمات
أكثر وضوحاً كما بلغته نبرة الوجع المفرط للإيقاع.

يُصر أخاه واقفاً وظهره إلى الباب وقفة عبد الحليم وحركاته
وإيماءاته ذاتها حين يُغني. يُلوح بكفّ يده اليمنى إلى الأعلى

ويهددها هابطاً بها مع انخفاض وتيرة اللحن. يتأمل أخاه السابح
في عالم آخر حتى إنه لم يشعر بدخوله، وطائف من التوجّس يتأكل
ضميره، فيتوغّر قلبه.

الفضاء مُكتظّ بآلم فادح لم تخطئه شفافية راشد، وهو يتأمل كفي
أخيه وهما تُحلّقان مُعبّرتان عن معنى الكلمات الهادرة، وكلّ شيء
بمرماه هي:

وسرّ وحدى شريداً...
مُحطّم الخطوات
تهزني أنفاسي...
تُخيفني لفتاتي
كهارب ليس يدري من أين...
أو أين يمضي

شك... ضباب... حطام... بعضي يمزّق بعضي
تُصاحب عيناه عيني القطّة التي مدّت جسدها الطريّ بدلال على
سرير عبد الرحمن ورأسها ينحرف يمينا ويتوقف برهة ثم يزيد انحرافه
ثم ينحرف يساراً ويتوقف برهة، ثم تزيد انحرافه مع إيقاع حركات
عبد الرحمن بينما تتسع حدقتها في دهشة ثم تنطفئ دهشتها وكأنها
تحاول استيعاب ما يُمارسه:

سألت عقلي فأصغى وقال لا... لا... لا

لن تراها... لن تراها

وقال قلبي أراها... ولن أحبّ سواها... لن أحبّ سواها.
يستدير عبد الرحمن في غمرة انفعاله مع الكلمات ويلمح أخاه.

يُسارع بإغلاق جهاز التسجيل وهو يمسح قطرات العرق التي
رشحت من جبينه ليجلس على حافة سريره مدارياً ارتباكاً وافتضاح
وجعه. يرفع كفيه إلى شعره يكاد يشده غيظاً مُبهماً ثم يقذف بكفيه
في الهواء وكأنه ينفض غباراً خانقاً من روحه في الهواء:
- أكاد أموت حزناً.

هزّ رأسه يميناً ويساراً مرّات عديدة كمن يريد أن يستفيق من
استلاب وجدانيّ أو فكريّ محاولاً استعادة عوالمه المرحّة:
- منذ زمن لم تدخل غرفتي يا خليف الرئيس!!

احترامه لخصوصية أخيه تنفك بقلقه عليه، فيكبح جماح أسئلته
ثم يُطرق. يشعر بأنّ هناك شيئاً ينهش أعماقه، فتتوه ابتسامته محاولاً
البحث عن مرسى أمان وتطمين، يزج بمجاديفه في شماعة الوقت
وتوقّف ساعته، لترتفع مقدمة حاجبه الأيمن كعادته عند أيّ انفعال
وتومض عيناه بشعاع ساحر.

يُداعبه عبد الرحمن بأنّ مشكلة المثقفين مثله أنّهم لا يتعاطون مع
الطبيعة بشكل وافر ويكتفون بقرض الكتب، وحين يشعر بأنّ راشد
لم يظفر من إجابته سوى بالتوهان وقد خانت المباحثة ممرّات فطنته
وذكائه، يردّ متحدياً وفراشات مُلوّنة تنزرع في أحداقه وقد امتلأ
صوته بنكهة بهجة بأنه يستطيع أن يعرف الوقت دون النظر إلى الساعة
الجاثمة على وجه الجدار.

يتوغّل في عيني القطّة وحين ينفك من عوالمها يجيب:

- تراهني أنّ الساعة ١٢ ظهرأ؟

يلتفت الشقيقان بسرعة إلى الساعة المُعلّقة على الحائط ليندهش راشد

من تطابق توقيت الساعة مع ما ذكره عبد الرحمن وبابتسامة باهرة ينطق:
- كيف عرفت؟

بشقاوة تمتد يدا عبد الرحمن إلى قِطَّة ويحتضنها موضحاً أنَّ
"النينجا" الذين برعوا في فنون القتال آمنوا بالقوى الخارقة للإنسان
وذلك بتوجيه القدرة الداخلية التي أوجدها الله بداخله وجعلها
مطواعة لإرادته بالمران، وبما أنَّ قوَّة النينجا تكمن في سعيه لفهم
العالم ولا يكتمل النينجا الحقيقي إلا بالحب لكل ما حوله والتواصل
معه، من هنا مدّوا تواصلهم مع الكائنات المحيطة فجادت عليهم
الطبيعة بأسرارها. منحتهم المعرفة وابتكروا الوقت باستخدام عيون
القطط الشديدة الحساسية، عن طريق الفتحة الموجودة في عين القطّة
التي تتعدل مع دورة الشمس في كبد السماء. إذ تبدو مستديرة تماماً
ومفتوحة أثناء فترات الغسق في الفجر والغروب، ثم يقلّ حجمها
إلى شكل بيضاوي وتأخذ في الضيق أكثر مع امتداد الضُحى وتصبح
عند الساعة ١٢ ظهراً ضيقة جداً وتشبه الإبرة تقريباً في خطّ مستقيم
لتعاود الاتساع حتى السادسة مساءً فتبدو كاملة الاستدارة.

تعبث يدا القطّة الناعمة بيدي عبد الرحمن فبدأعبها مخاتلاً إيّاها
بوضع أصابع كفّه في بطنها ودغدغته، وحين تضربه بيدها يبعد يده
قبل أن تصله يدها ليعيد عبثه وضحكاته ويتعالى شغبها.
يتسلّل راشد خارجاً والعبث البريء مع القطّة يُهدد قلقه
ويُخرسه. ربما ما رآه مُجرّد استغراق في أجواء الأغنية لا أكثر، فلا تزال
بيادر أخيه خضراء وارفة، لم يندلق ألق صباحاتها من جيوب الواقع
المتربة بالخيبات والصدمات.

أم الدنيا

يَلْدُ لأبي جعفر أن يَنكأ الأيام الخالية، ويستدعي اللحظات الغافية
ليَتذوّق نثار السنين، يسترق الأصوات القابعة في زوايا الصدر، ويشدّ
حبال الجموح ليستصرخ صهيلها.

لا يزال يطيب له كلّ ما هو عتيق ومحمّل برائحة الأمس، ولا يزال
يطيب له في أيام الحرّ اللاهبة أن يأتزر إزاراً و”فنيّلة علاقي” ويتمدّد
في ”عرّيش” البيت الذي لا يريده أن يُهدر غم تطوّر كلّ ما في البيت،
وقد توسّط عريشه مُكيّف مائيّ فهكذا يريده. يُريد رائحة المكيّف
الصحراوي لأنّ به عبق البدايات نحو المدينة الحديثة، يُريد راديو في
عرّيشه ولا يُريد تلفزيون رغم أنه عاصر بدايات دخول التلفزيون إلى
المنطقة وكان يافعاً غضاً.

كان قد لمح جعفر وراشد يتحدّثان في بهو البيت فحيّاهما ودخل
إلى عريشه، وقد تنامى إلى سمعه خبر استغناء العمل عنهما فلم يزد على
أن رفع كفّه الأيمن وهو يفرك إبهامه بالسّبابة قائلاً:

– تمام يا غناتي، خل تعرّكم الحياة... أحياناً لازم نطيح كي ننهض،
السقوط نجاح، خل تعصركم الحياة عصر لين تصيرون رجال، انتوا ما

شفتوا شيء من الدنيا.

ودلف عريشه وكأنَّ الأمر لا يعنيه. تَوَسَّدَ عُمره وابتهج لصفحة
القدر لجعفر وراشد التي يرى فيها صناعة للرجال. أرخى المسند تحت
رأسه متمدداً على ظهره، ورفع ساقه اليمنى على ركبته اليسرى، ثم
شبك كفيه تحت رأسه، وهو يتمتم محدثاً نفسه:

— شافوا شيء من الدنيا!... ما شافوا شيء بعدهم!!

ترك للبراري العشبة في قلبه أن تتذوق هطولها الماطر نحو بواكير
الستينيات في "بقيق".

كانت الصحراء العارية غنيّة بالجفاف، طواحين السموم تعبث
بالأتربة الصفراء، ومعامل توليد الطاقة وصيانة الأنابيب تحتفي بشبابنا
الذي كان وقوداً لها.

كان العمرُ يافعاً وسياط الشمس تُمزّق الوجوه الفتية، صهد
الصحاري يصبغ جلودنا ويقلب لونها إلى سمرة مُحترقة. كُنَّا ننطلق مع
البواكير في جَلْد لا نتجاوز الثامنة عشرة إلا في ما ندر، حيث يمتدّ في
أم الدنيا (أرامكو) فهكذا كنا نطلق عليها، كامب حي السلام (camp)
لكبار موظفي أرامكو من الأمريكان، وحيّ السلام عبارة عن منازل
سكنية على أحدث طراز أوروبي تهدر فيه مكيفات مركزية تتعلق
أعيننا بها كلما وقعت عليها. تمتدّ دروبه الضيقة لتصل حيّ الفرحة
الخاص بالموظفين ذوي المنزلة المتوسطة حيث يُقارب تصميمه تصميم
مبنى كبار الموظفين لكن أكثر بساطة، وتنتهي أرامكو بقيق بالحي العام
(حي منصور) الخاص بصغار الموظفين وهو عبارة عن طابوق ومراوح
صغيرة، كأنما لا يستحقّون بعد أن يكون لديهم مكيفات.

يتمدد الفراغ في ضلوعنا ونغرقه بالعمل المضني والضجر الذي نبذده بالحكاوي الخرافية واحتساء الشاي حين يغيب عن الأنظار كبير المشغلين سليمان الذي أطلقنا عليه لقب الرئيس وبات يُعرف به حتى بعد أن تزوج وخرج من ظهره بكرة راشد شبيهاً له في كل شيء، دماثة خلقه وشجاعته واحترامه للإنسان. احترامناه... فأحببناه، وتمازجت مشاربنا حتى إنه سكن في بداية زواجه ملاصقاً لداري في سنابس ليغدو الدار واحداً والقلب واحداً.

ولسليمان ذي البشرة الداكنة والمعتدل الطول بعضلات مفتولة وملامح رجولية دقيقة، حكاية بطولية يذكرها كل معاصريه. كنا وقتها نعمل في عين دار منطقة تعاني من التصحر خارج بقيق. كان برج الحفر (الرق) هو الكارثة الكبرى والمعاناة التي نلاقي صنوف العذاب في عملنا بها، فكله أنابيب وأدوات ثقيلة، مولدات كهرباء وأدوات حفر، ثمّ هذه الأنابيب من فوق إلى باطن الأرض، وأيّ ضربة عليها وإن بالخطأ يستتبعها اشتعال حريق. عند التعامل معه لا بدّ من ارتداء الأقنعة الواقية وقفّازات الأمان ومع هذا كله فذلك لا يكفي، لأنّ علينا بعد وضعها وتمديدتها بالأجهزة والحفر في الأرض بحثاً عن البترول، أن نقوم بحلّها عن بكرة أبيها، كلّ جزء بمفرده ثم نقله بأيادٍ جماعية في "تريلات" إلى منطقة أخرى.

كان البئر وقتها، كي يتمّ حفره ويُنتج زيتاً، يحتاج إلى شهر أو شهرين، بينما صهد الشمس يُرسل ألهبته إلى أدمغتنا مباشرة، حتى صفائح الثلج كانت تذوب في دقائق فتصل المياه إلى حلوقنا كأنها مغليّة.

وفي يوم شديد الحنق انكسر الرأس الأساسي للبئر الذي تمتد منه عدة رؤوس أشبه بالحنفيات المُستَنَّة، فتسبب انكسار الرأس الرئيسي في انتشار الزيت بكميات هائلة واشتعلت النيران وتصاعدت مُلتهمة كل ما حولها بسرعة البرق، وكان أول وقودها اثنين من رجال الإطفاء المدربين، فتدافع الموظفون إلى الهرب من النار التي إذا تُركت ستُتسع رقعتها.

هول الحدث جعل كل الموجودين يُحاولون الهرب قدر استطاعته وإن كانت النار أسرع، فما كان من سليمان إلا أن سارع بأخذ جهاز للحفر وبدأ يحفر بشكل مواز للبئر دون أن يأبه بالنار التي في لحظة غادرة قد تُحيله رماداً. بقي بمفرده يحفر حتى وصل إلى أسفل البئر الملهب فأخذ يهيل عليه طيناً ثقيلاً وينادي الرجال الفارين بالإسراع بتلقيم البئر بالإسمنت، وعندها اقتربنا لنساعده في إهالة الطين والإسمنت حتى انطفأت النيران التي أذابت جلد يده اليسرى فتبدت عظامها.

كُنَّا جميعاً ندرك أنه عرض حياته للخطر، لكنه لم يبال سوى بحياة البقية الباقية من موظفيه الذين تحت إمرته، والحفاظ على معدات الشركة. وبعد هذه الحادثة لم يعد يُذكر سليمان إلا والرئيس تسبقها حتى وإن كُنَّا خارج العمل. ورغم كل المخاطر التي تحف بنا كُنَّا عندما نهجع إلى الديار نوكد قلوبنا سراجاً... ونام بسلام.

لعب بنات

مملوءة بالصباحات الرتيبة ألقت بجسدها في سيارة الأجرة. صفعتها رائحة متودكة كادت معها تنقيًا. انكفأ يحيى على حنانها ليسر سرّ الرائحة فاشتعل نقاؤهما حنطة. فتح النافذة، فانسكبت نسمة مُحَمَّلة بمذاق أزمنة، حين لَوَّح يحيى مودّعاً يسوق أمانيه الصغيرة في حقيبة وكتاب.

امتدّت يد السائق صوب جهاز التسجيل، فتحه على أغنية هندية تشحن الجوّ بأجواء عاطفية نأت عنها منذ تباعدت مرحلة المراهقة بفورانها وخيالاتها التي لا تمسّ أرض الواقع. مدّ يده بزجاجة عطر مغلفة. علت ملامحها الدهشة من تصرفه واعتذرت عن قبولها. عاود المحاولة فأصرّت على موقفها.

كان أوّل من التقته حين وصلت وجه نشمية. وأوّل من تحدثت في طابور الصباح كانت نشمية، التي تبدّلت حالها. باتت أكثر جرأة أو هي تحاول أن تبدو كذلك وقد اهتمّت بهيئتها وفاحت منها رائحة عطر pleasure. وقفت لإلقاء مقالة كتبها بعنوان "الأم معنى" دون أن تكفّ عن اختلاس النظر لأمل. بين فقرة وأخرى تتوقف للحظات،

تنظر نحوها ثم تشحذ صوتها الذي يكاد أن يختفي من الارتباك،
والورقة تهتز في يدها.

اقتربت أمل وقبضت على الورقة بدلاً منها، فانقلب وجهها إلى
حمرة داكنة وأنفاسها تكاد تتوقف مُجاهدة أن لا يختفي صوتها.
حين شرعت في القراءة. سعت لتجميد مشاعرهما، وفي تحدٍّ لذاتها
سحبت الورقة من يد أمل وأمسكتها بكلتا يديها متابعة حتى انتهت.
استدارت لتختفي في فصل الإذاعة، ثم أطلت مرة أخرى وعيناها لا
تبرحان أمل.

مضى اليوم الدراسي بطيئاً رتيباً لولا أن أمل حين عبرت فصل أ/ ٢
الذي تجمهرت طالباتها أمام بابه. بلغها صوت صالحة وقد أدخلت
رأسها إلى الداخل موجهة حديثها لإحداهن:

- الجو... الجو.

مضت دون أن تُعير ما تسمع التفاتاً، وصوت صالحة يصرخ في
الطالبات بالابتعاد وعيونها معلقة على نشمية:

- تعالي... يا الله ملّي عيونك.

عبرت مُطرقة، ثم رفعت رأسها على صوت منى التي وقفت
ملاصقة لصالحة ونشمية خلفهما:

- أبله ممكن شوي.

التفتت إلى الخلف. رأتهم دون أن تفهم، يُحرّضن نشمية التي
تكاد تذوب في مكانها على أمر ما، لكن عقدة لسانها ظلت مربوطة
فسارعت منى متبرعة:

- أبله نشمية تحبك.

نظرت إلى نشمية بهدوء، ومسحت على خدها بتلقائية:
- وأنا أحبك جميعاً.

ومضت في طريقها، ليلغها صوت صالحة من بعيد:
- أبله... نشمية تحبك غير.

رمقت صالحة بنظرة خاطفة فعاجلتها صالحة:
- أقول: "جده غير".

وحين انتهى اليوم الدراسي، عاودت الرائحة المتودكة صفعها،
فشرعت في سؤال السائق عن مصدرها في اللحظة ذاتها التي وقعت
عينها على زجاجة قرب مقعده، سرعان ما تناولها ودلق محتواها في
جوفه متبرماً:

- أنت إيش هذا؟ ما فيه فييلنج feeling، إنتَ يسمع هذا... معلوم
كلام؟

تلتقط يده شريط كاسيت يبدو أنه قد أعدّه مسبقاً وفهم معانيه
محاولاً استفزازها بكلماته:

- إنتَ يسمع... Lissen

ينطلق الصوت:

طحت من عيني بعد ما كنت عالي وحبك أرخصته بعد ما كان
غالي

كم سهرت أيام في حبك مولع ما دريت إنك بتمثلك خيال.

تركه في عالمه وتستجير بعوالمها وقد بلغ منها الإجهاد حدّه
ونفذت طاقة يومها وعزمت في أعماقها على أن تكون هذه المرّة

الأخيرة التي تركب معه. ظلّت تنظر إلى البعيد شاردة، بينما اختلس النظر إليها من خلال المرآة، وحين شعر أنها في وادٍ آخر، أطفأ جهاز التسجيل:

— أنا يعرف إنت ما فيه معلوم أنا واجد حُب إنت، أنا ما فيه نوم واجد واجد فُكر.

أوقظتها عبارته من سباتها الواعي، للوهلة الأولى شلتها المفاجأة، وأجمتها الجرأة التي يتحدث بها. ثم انفلتت تنهره أنها لا تريد أن تسمع المزيد، وأن يسوق وهو صامت، لكنّه ردّ بثقة ودون خوف:

— أنت ما فيه خوف، don't worry أنا يروح حق بابا إنت... سوي خطوبة... كل نفر ما في مُشكل... هذا عم مال آنا في هند واجد ساحر شاطر، هو فيه سوي شغل مزبوط مال زواج أنا وإنت... شور shure بابا ماما... هو موافق... ما في مُشكل.

تفتح الباب، يلتفت إليها فرعاً من تصرفها الذي قد يُكلفه الكثير، يُخفّف سرعته فتُلقي بنفسها للخارج وهي تصرخ:

— إنت أكيد مجنون... مجنووون.

تسير تحت الشمس الحارقة، وهي تلعن السائقين والحاجة إليهم، حتى تتعب من السير فتتوقف. تأتي سيارة أجرة، سائق سعودي أشيب أستوقفته وعادت إلى منزلها، ثم طلبت منه أن يأتي إليها صباحاً إذا لم يكن لديه ارتباطات فوافق.

في الصباح بعد أن أوصلها إلى المدرسة، طمأنها أنه إذا لم يكن معها نقود فلا تُضيق على نفسها، بإمكانه الصبر حتى آخر الشهر. شعرت بأنه طيّب، وقرّرت أن تبقى معه حتى عودة سائقها.

سَدَنَة نَسج الحكايا

أهالي حيّ العشائر، أولئك الموصومين بلعنة الريح والتراب حتى باتوا كالأساطير الجانحة إلى الخرافة، في زمن يرقد تحت ثنايا صمته قمقم الحكايا التي لا تتوقف. مخبئين في بيوتهم، لكنهم مثل خلايا النمل التي لا تتوقف عن التناسل والمُضي إلى الأمام مهما اصطدمت بالعوائق ومهما كان الأمام... سراياً زائفاً.

عشقوا الحياة الصاخبة. يفتحون شمسهم كلّ صباح على هدير فضيحة جديدة أو حزن عاصف ليتندّروا به باقي يومهم بانتظار حدث قادم يتعايشون معه ويهتكون به أستار السكون، ليكونوا باقتدار سَدَنَة نَسج الحكايا وناحتي أصنامها، فقلّ اعتكافهم بالجدران ولاذوا بالطرقات.

تمتدّ الحصوات الصغيرة مختلطة بالرمل المحترق من حرارة الشمس اللاهبة على طول حيّ العشائر. يهزأ بخشونتها الصبيّة غير مباليين لا بخشونة الأرض وجفافها ولا بهجير الشمس، إذ يفرشون التراب وظهورهم مُسندة على جدران منزل مخلد، أحد أبناء الحيّ النازحين إلى الغرب في بعثة دراسية صَدَّرته لها شركة أرامكو مع عائلته. يلتهم بعضهم الساندوتش والكولا، بينما تتشابك خيوط الدخان

الذي تصاعد من سجائر البعض الآخر، وآخرون غارت أعينهم في ما ترأسلوه من بلوتوثات فاضحة أو فكاهية، وهم كالحُشب المغيبة خارج نطاق أيّ تغطية في الكون.

ينشقّ الطريق عن أنثى فارعة الطول ممتلئة في غير ترهل، يلمحها أحدهم قادمة من الزقاق الضيق كجرفة سيل، حيث منزلها الصغير في بداياته ثم يتسع ليؤدي إلى التجمع ذاته. يُحدّق الفتى في الهيكل القادم ليتأكد من صاحبتة ثم يصيح في شلته مدلاً على أنّ القادمة هي هيلة من لزمته التي اشتهرت بها، وقد اقتربت كثيراً:

– يا ليل ما... حططت رجلك.

يعتدل كل منهم استعداداً للهروب الكبير، بينما يعتدل فوّاز شاحداً قدميه لتمتطي الريح وهو يُحرّض ذاته على الهرب السريع:

– اققق... حص... جاك الموت يا تارك الصلاة.

لكن هيلة كانت قد اقتربت، فحجل أن يهرب وقد رأتها وباتت على مرمى حجر منه. لاذ بجدار مع اثنين من صحبته جمّدهما الخجل ذاته من الهرب وقد اقتربت. يشحذ فوّاز رجولته النامية المزعومة مُتصنعاً الاستخفاف، بينما نظراته تشي بالحذر من هيلة فقد تقذفه بكلمة من لسانها السليط لا تقوم له قائمة بعدها أمام أصدقائه، وقد رفعت برقعها عن صفحة وجهها.

يقرأ نظراتها المركزة عليه، وهي تُهدّد بلوح كفّها في روح رجولية:

– عوّد وراك... عوّد وراك... يا ملعون الجدف... ليه مخاصم بيتكم كما جرو مضيع دربه؟! قم نعنابو ذا العين اقلع، أتعبت أمك

وعادك في است القاع.

يحاول أن يتمسك بوهم رجولته مرعوباً من لسانها:

- بجلس شوي مع أصدقائي بعدين أروح.

تنظر إليه نظرتها الفاحصة الثاقبة الشهيرة من أسفل إلى أعلى
مستوى البصر، وألم قارس يضرب في إصبع قدمها اليمنى الكبير وقد
علاه اسوداد غريب.

تنزل بحركة مهينة تقصد استفزازة تتلمس موضع ذكره:

- ها وش أنت؟ رجّال ولا...

يُستفز وينهض غاضباً وهو يبعد يدها بهياج، رافعاً كتفيه في
استعراض لرجولته وكأنه سيهم بضربها وإن كان أكثر أدباً من أن يُقدم
على فعل كهذا، خصوصاً مع هيلة التي رغم حذر الجميع من سلاطة
لسانها إلا أنهم لا ينكرون محبتها:

- رجّال ونصّ.. وانتبهي، أنا لا أزال أحترمك.

تعود إلى نظراتها الثاقبة الفاحصة المتوعدة:

- هااااا، ها اغدر رجّال واترك الدجة في الشوارع وكب هالرخمة.

وتحاشياً لما قد تُعرضه له من مواقف مُحزّية أمام رفقة، يتقدمها
عائداً إلى البيت وهو يشعر بالحنق على أمه التي استعانت بها لإعادته
إلى المنزل، وشعور بالنقمة والتمرد يشتعل في صدره.

- إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله.

قالتها أم مطلق وهي رافعة كفيها المرتجفتين نحو السماء. تعيدها
مراراً ودموعها تهمي حتى تلاشى صوتها وقد بُع من النحيب.
يدخل فهّاد والد مطلق ويلمحها في جلستها تلك، يسمع بكاءها
ودعاءها وممتلاً عيناه بالندى ذاته. يقذف جسده بجوارها، فتنظر
نحوه برجاء أمل يراود الروح في خبر يُشفي قلبها، يحاول التملص
فيخونه صدقه:

— مطلق اعترف قبل أيام... والمحقق قال إنّ حكم القصاص صادر
لا محالة.

تصرخ وهي تهبّ واقفة كالمجنونة، تضرب نفسها وهو يحاول
تهديتها، لكنّها أصيبت بما يشبه الهستيريا لم تعد تسمع أو ترى. تطيح
جسدها على الجدران مُنتحبة ثم تحاول شقّ ثوبها لكن سماكته تحول
دون ذلك. يصرخ بو مطلق كي تهدأ فيتراكم أبناءها لاحتضانها
وهي تترجّاهم:

— بيروح أخوكم إذا لم تفعلوا شيئاً... افعلوا شيء.

قالتها برجاء مُروّع. استغاثة ذبيحة وهي تضع يديها في شعرها
وتشده بحرقة، ثم غابت في إغماءة في أحضان بناتها اللاتي تعالت
أصوات بكائهن في ألم مزدوج.

تغيّر مطلق... لم يعد الشاب المستهتر... أقل طيشه قبل أسابيع
انصرمت. قلبت هذه الحادثة كيانه كُلّه، كانت المحنة القاسية...

وكانت الصحوة، في الوقت الضيق الضائع. منظران فقط هما اللذان يتكرران في مخيلته... طلقة الرصاص وحميدان يهوي، ومنظر السياف القادم وهو يرفع السيف ليهوي به على رقبتة، وقلب أمه. كلما قفز هذان المنظران قفزت صورتها أمام عينيه فيغيب في بكاء مرير.

لم يعد ينظر إلى الأمور بمنظار الغرور واستصغار الآخر، ولم يعد حميدان بالنسبة إليه "خبل"، بقدر ما بات روحاً أزهقها بغروره وطيشه، وهو الآن وفي لحظات حاسمة ومصيرية كهذه يعرف معنى الروح وقيمتها، يعرف تحديداً معنى إزهاق الروح.

عرف من المحقق المكلف في قضية حميدان، أن حميدان كان رجلاً ذا شأن في زمانه الأول، كانت له رتبة في الجيش، يهتم بهيئته وينتقي كلماته بعناية فائقة، ويمتلك قلباً شاعرياً محبباً. تعرّف في إحدى سفرياته إلى سوريا على زوجته، وعمل كل ما بوسعه لجليها إلى دياره، وحين قدمت انقلبت حياته بعد عامين.

فجأة تغيرت معاملتها له وصار، وهو الشخصية المعتزة بذاتها، خاضعاً منصاعاً لأوامرها دون أن يجد أحد تفسيراً لذلك. وبعد أن كتب كل ما يمتلك باسمها طلبت منه الطلاق وأرغمته عليه وأخذت أبناءها، ولا يعرف المحقق كيف أرغمته لكن هذا ما بلغه، بعدها تزوجت أخاه. وكانت الصدمة التي تحوّل بعدها إلى بقايا آدمي... حطام.

تمنى مطلق أن يعود به الزمن إلى الوراء، فيقترب من حميدان ويصاحبه، تمنى أن يكون عقله الواعي فيساعده في العثور على أخيه

حمود الذي أضناه البحث عنه، لكنّ حميدان مات... وهو من قتله.
كان حميدان الأنقى رغم الاتساخ الظاهر على ملابسه التي
يحرص على أن تكون في قمة الشياكة لكنّها قدرة، يحرص على
شماغه أن يكون "رزّه" رغم ضياع لونه من الأوساخ، لكنّه كان
الأطهر. شفافيته وصدقة وعطاؤه كانوا النّصل الذي أغمد في وعيه
وأدخله في مساحات مجهولة من اللاوعي هرباً من الحقيقة التي لم يبقَ
منها سوى أنّ لديه حقاً عند أخيه... ولا بدّ أن يسترجعه.

بدايات

أطلّ راشد من نافذة غرفته على ساحة المنزل دون تركيز، وقد ثقلت نفسه من تداعيات قرار فصله وجعفر من العمل وما ترتّب بعد ذلك من استغناء عنهما لعدم مباشرتهما العمل في المنطقة المعنية بالنقل. شدّ انتباهه حركة القطة حين اتجهت إلى صنبور ماء خارج المطبخ. تلحس بلسانها قطرات الماء المتساقطة على الأرض، عيناها على الأرض وقلبها مع أبنائها. حين رفعت رأسها لمحت قطاً كبيراً يتّجه نحوهم. وثبة عالية قفزتها كأنّها تطير لتطوي الأرض طيّاً حتى تسبقه لأولادها، تبعثها بقفزة ثانية حتى وصلت إليه، فدخلت معه في عراق شرس حتى هرب، فسارعت لصغارها تتشّم رائحتهم وتمرّر لسانها عليهم، وهم شبه أحياء وشبه أموات يبطون منفوخة. هزّ رأسه معجباً بعظمة خلق الله وهو يتمتم: "الله... سبحان الله... سبحان الله."

حدّث نفسه: "كيف تسنّى للقطة أن ترى القطّ القادم لأبنائها رغم أنّه لا صوت لخطواته، ويبعد عن مكان وقوفها الكثير؟! كيف شفت عوالم هذه الكائنات فصارت ترى دون عيون، وتستشعر دونما يثير

الشعور ويُنبهه؟! هل هناك ظلام في دواخلنا يقف عائقاً بيننا وبين أن نشفّ ونستشعر بهذا القدر؟!“

جلس على حافة سريرهِ، يبحث عن مخرج وقد بات عاطلاً. دون مقدمات اشتعلت فكرة في رأسه. تذكر سيارته التي كان يعمل عليها قبل عمله في وزارة الإعلام سائق أجرة. شعر بأنه لا يمكن أن يستسلم إلى الفراغ وهو المسؤول عن أمه وأخيه الذي لم يعثر على وظيفته بعد. عزم أمره على أن يُعيد إلى سيارته اللوحة الخاصة بالليموزينات. ويعود إلى العمل عليها، والترخيص لا يزال موجوداً معه، فقط يحتاج لتجديد.

(جعفر يتصل)... ظهر اسمه على شاشة الموبايل، فردّ عليه بسرعة والفكرة تقفز في رأسه، همّزه بما انتواه، وأنّ عليه هو الآخر أن يُسارع بعمل الأمر ذاته حتى العثور على وظيفة ثابتة. أسرّ له جعفر بأنه قدّم أوراقه إلى أكثر من شركة، أرامكو وسابك وبعض الوظائف الحكومية غير الشركات التي تقدموا إليها معاً بالأمس، كلهم أخبروه أن يترك ملفّه وسيُصلّون به عند الحاجة.

ومثل قلب يتأوّه، وقفت أمام باب غرفة المدرّسات بوجه له قسمات الصبا وتخبّط البدايات. مدّت بخجل عذريّ باقة ورد حمراء إلى مدرّسة الفيزياء التي سألتها عن مناسبتها فارتبكت وهي تُسوّر مشاعرها بسوار من حياء احتقن معه وجهها فلاذت بالهرب.

تبعثها نشمية بطرق الباب، وتوق شرس لبوح عاشقة يُسافر
عبر عينيها. نادى أمل وهي تُشعرن مشاعرهما، كما تُشعرن حياتها
فتنكوي بهجير التراب وشدة سطوعه. أرخت أمل رواية من الأدب
الإنجليزي كانت قد شرعت في قراءتها، ونهضت.

اكتست ملامح نشمية بحمرة قانية، فأخذت نفساً عميقاً ومدّت
يداً مرتعشة برسالة فاض عطرها بغناء القلب.

صمتت أمل لحظات مفكّرة، ثم أوضحت أنها لا تستهويها مسألة
الرسائل، لكنها ستطلع عليها على أن تكون المرة الأخيرة. وحين لمحت
أشعة الانكسار والارتباك في عيني نشمية ابتسمت بحنان وعادت إلى
مكتبها.

كانت الرسالة أشبه بمذكرات مراهقة، اندلق ألق الصبا في أوردتها
دفعه واحدة فارتبكت فصولها وحلّق النورس بعيداً عن عُشه. ترنّح
في أفقه رافضاً الجو الخانق لأب لا يعرف من الأبوة سوى التسلط
واللامبالاة، وأمّ تلملم أشلاء ذاتها التي انفرطت مُلملة عقد صغارها
في بيت ضاحٍ بالصراخ ومُنحاز إلى الذكور.

تُفتن باللغة الشاعرية التي تكشف حساسية مفرطة لصاحبيتها
وشاعرية لا يشي مظهر نشمية المستكين بمداهها، فتبحر في الأسطر.
تشتم الضجر يفوح من الحروف ويرقد التمرد في طياتها موشاة بغضب
عارم على الأم الضائعة الهوية أمام قسوة الأب، وجلمد على أبنائها في
غيابه كما يصور وعيها الجديد عهد بالحياة، فيلبس الحقائق فهمه القاصر
ويتطرّف في اعتقاداته لتغدو الوجع المزمّن الذي ينخر شغاف الروح،
ويجد في انحراف العاطفة خلاصاً وتوقاً للتحايل على الواقع.

تطوي أمل الرسالة وهي ترفع بصرها مُحدقة في الأفق. وحين تقترب من منتصف الطريق وقت الظهيرة وعودتها إلى منزلها، ينظر إليها السائق الأشيب بنظرة ثعلب حطت على ملامحه ألوان فسق:

ترى الفلوس تحت نعالك، وأنا سبحان الله ارتحت لك، لا يهَمُّك... ترى أنا بئر وسرك ما يطلع لو على قصّ رقبتى، تريدان أن تدفعي فلوس... أم شيئاً آخر، أنا رهن إشارتك... أدفعي اللي يريحك.

زمت شفتيها بغیظ وانفجرت غاضبة ونزوة سافرة تطلّ من عينيه. بصقت في وجهه وهي تصرخ فيه أن يتوقف والغثيان يملأ روحها.

تركت السيارة لاعنة كل السائقين. سارت تحت هجير الشمس وحين شعرت بالتعب توقفت حتى لمحت سيارة أجرة قادمة فاستوقفتها. وحين وصلت منزلها مدّ السائق يده برقم هاتفه المحمول، وأكدت عليه أن يأتي إليها في صباح الغد، فهزّ رأسها موافقاً.

و حين استكانت نشمّية في غرفتها وقد أودعت أمل وريقاتها التي هي بالنسبة إليها أنفاسها وسرّها العصيّ على البوح عن وضعها العائلي الذي تحياه. توسّدت الجدار وهي شبه ممدّدة على سريرها بسروال قطني أبيض فضفاض وبلوزة قطنية بيضاء بورود زهرية صغيرة وشعرها الكستنائي الكثيف مرفوع في ذيل حصان بينما ظفر الإبهام يتكئ وسط شفتيها وهي تائهة في أفكار شتى.

تذكر الضوء اللامع الذي ومض في عيني أمل صباحاً حين لمحتها بينما كانت تقف أمام باب الفصل تبحث بعينيها العسليتين الناعستين عن طيفها الذي ملكها، حين أبصرتها تلميذاتها اللاتي تجمهرن أمام الباب.

تستعيد عبارة أمل التي ثرتها بتلقائية:

- صح كلام صالحة، تشبهين ليلي فوزي الممثلة المصرية... بس على حجم أصغر.

تبتسم وعيناها لا تزالان شاردتين، وتتنهد في سعادة لذيذة:
- ويلي فوزي حلوة... عيونها تاخذ العقل، يعني أعجبها...
أعجبها؟

تعاود الابتسام، تتسع ابتسامتها وهي تقفز إلى المرآة تتأمل ذاتها
وتكاد ترى صورة أمل أكثر مما ترى ملامحها.
يسحبها صوت والدتها منادياً:

- يا عَلك ما ترتاحين يا "الرّفلة" تعالي لم اخوان(تس).

تزفر بضيق وتنقلب ملامحها، وفي تهكم تتمتم:

- والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق!

تتجاهل ما يحدث خارج غرفتها.

تجمع مقدّمة غرتها وتنكشها بالمشط لتنفشها قليلاً ثم تُمسدها
إلى الخلف وتُنزل بعض الخُصل على جبينها وقرب أذنيها كما هي
طلّة أمل. تُمرّر قلم الكحل الرمادي على مقدمة حاجبها ليأخذ بعض
العرض كما حاجبي أمل. تجد نفسها باتت أكثر جمالاً وتشعّ عيناها
بالفرح وهي تُحدّث نفسها:

- من بكره، سأستعمل عطراً جديداً خاصاً مع "اللوشن" الخاص
به ولا أغيره كي تميّزني به كما أميزها بـ "بليجر"، وكي تعرف أنّ لي
شخصيّتي المستقلّة.

يلغها صراخ والدتها وهي تضرب إخوتها:

– غاضور يغضرك يا ابن ابليس، ياويلي دبلتوا كبدي يمل للعة.
الصراخ وصوت الأقدام المتراكضة يبلغها ويثير أعصابها، فتحاول
إيجاد سكينة وتجاهل الغبار الذي ملأ روحها.
تُفكر قليلاً.

تمسح ما فعلته بقلم الكحل في حاجبيها لتعيدهما إلى وضعهما
الأول كما تُعيد شعرها إلى وضعه السابق وهي تتمتم:
– عشان تعرف أنّ لي شخصيتي المميزة.
يدخل الأب إلى صالة المنزل بوجه مُتجهّم لم يعرف الابتسام إلا
سهواً في نومه.

يُلقي عبارته المعهودة بصوت دبق:
– حظي الغدا.

يضرب أطفاله كلّاً على رأسه ويمضي إلى غرفته واجماً. يعود
الأطفال من جديد إلى عراكلهم، فتضرب الأم هي الأخرى كلّاً منهم
على رأسه دون تمييز وهي تشدّ شعرها، ليفتح الباب موبّخاً:
– سَكّتي العيال.

ويغلق الباب.

تنفجر مراراتها وتضع كفّيهما على مقدمة بلوزتها وهي تهتمّ
بتمزيقها صارخة:
– يا ”ويطيسي“.

روح

تنظر أم راشد بأسى إلى القطة التي تُقلب أبناءها بذراعها الناعمة
وتمسح عليهم بلسانها فلا يتفاعلون معها!

تأتيها لحظة تردّد، هل تأخذ القطّين الصغيرين وقد ماتا لتلقيهما أم
تركهما لهما! لكنّها تشعر أنّه لا يصبح تركهما وقد ماتا. تشعر بما يُلمّ
بقلب القطة الأم... تُشفق عليها. فتستعين بعبد الرحمن الذي وقف
يتأمل المشهد صامتاً. تهمزه بما تفكر به، فيشعر هو الآخر بالحزن على
قطّته كما يسميها، لكنه يرى أنّ الصواب هو حذف القطّين المتوفّين.
يلتقطهما بكفّيه وأمهما تركض خلفه وهي تموء بحزن، ويتعالى صوت
مواوّها حتى تمنّى عبد الرحمن أن يُعفيه أحد من هذه المهمة، فيسارع
بالخروج من الباب الخلفي ويُغلّقه خلفه ومواء القطة يتبعه.

تمسح أم راشد على رأس القطة المفجوعة النظرات وهي تنظر إليها
نظرات من انتزع جزءاً منه. نظراتها تبث تساؤلاً... جزعاً.. شكوى.
تنبيه إلى شعرها الذي يتساقط بغزارة، تعاود المسح عليها... ثم
تلمحها وهي تعود راكضة إلى المكان الذي كان يرقد فيه أبناؤها باحثةً
عنهم، تعاود شمّ المكان وتستنشق الهواء باحثةً عن رائحتهما فيه،

– مياو... مياو.

يدسّ خده اليمين على خدّها الشمال بعمق وحرارة قائلاً:

– وأنا مياو مياو موووت.

يخرج ويغلق الباب خلفه، بينما تغرق أمّه في الضحك حتى تدمع
عينها.

عيون في الجدران

وغرّد الطير تغريداً شجياً، ككلّ الطيور الحبيسة.

جدران ناطقة بآلاف العيون التي تواردت عليها... رائحتهم... أحلامهم... شخبطاتهم وأنفاس لحظاتهم الأخيرة. قضبان خرساء لا تقرأ حزن المساجين ولون إنسانيتهم، قضبان ونافذة صغيرة لا ينفذ منها سوى الظلام، عيون مطلق معلقة بها في عتمة متكاثفة، وقلب لأول مرة يشعر به، وبإنسانيته، تمتدّ يداها إلى قضبان النافذة الحديدية وبصره يسافر عبرها، يقف على رؤوس أصابعه محاولاً التقاط أيّ بصيص للخارج وضميره يغرد:

— طير... محبوس... محبوس.

سافر بصره خلال العتمة باحثاً عن الضياء. الفجر الذي غادر أفقه... هناك... خلف القضبان، ثم نكص إلى زاويته محتضناً ركبتيه وعيناه معلقتان بالنور البعيد.

يُشخبط بأفكاره ملمح القصاص، يتشبث بأمل أشبه بالدخان المتطاير، يشعر بأنه ما عاد ذاته. لحظة... لحظة واحدة كفيلة بإحداث انقلاب في حياة أيّ إنسان. يأخذ نفساً عميقاً، يحجزه في صدره

في تمام الجنون

في تمام السادسة صباحاً خرجت وقبضة في القلب تجهل باعثها، كما تجهل سرّ الدمع الذي انحشر في حلقها ويوشك على التهاوي. حطّ بصرها على السائق أزهر الذي طرده قبل أيام يقف أمام نافذة السائق الجديد مُحذراً إياه من توصيلها، وما إن رآها السائق الجديد حتى ابتعد كنيزك من شدة خوفه من تهديد أزهر الذي دخل سيارته وقبع ينتظر أن يدفعها اليأس للركوب معه.

وقفت مشدوهة. طلبت من يحيى أن يصعد إلى الشقة حتى تعود فذهب بذبول ثم انطلق إلى الأعلى واندس في سريره مرة أخرى ساحباً الغطاء على جسده.

بحيرة الدمع يزداد تلاطمها في حلقها ويعتريها الغضب ويفور مدّه وصوت أزهر يبلغها بكل ثقة وتحدّ أنه لن يسمح لأحد بأخذها منه، تضرب سيارته بحجرة التقطتها وصرخت:

- إن ما تنقلع لأخليك تندم على هذه اللحظة، يا حقير... يا كلب.
أدارت ظهرها وسارت في الطريق السكّني الممتدّ لتصل إلى نهاية الشارع بحثاً عن سيارة أُجرة فتبعها كظلّها.

الباب الموصد

انطفأت بهجة عبد الرحمن وعارف ينكشف عليه ببوح الرفقاء
أن ليلة أمس كانت عقد قران أخته عفاف. عفاف، حلم الطفولة
وبدايات الصبا الذي طوى عليه صدره منذ بلغت مبلغ البنات
ولزمت خدرها، ولزم هو احترامه للأعراف وصديق العمر صامتاً
حتى تأتي اللحظة المناسبة للبوح بعد تعيينه في وظيفة فيتصرف
تصرف الرجال الحقيقيين.

لا يعرف كيف اسودّت السماء وانطفأت الأنوار للحظات وهوى
قلبه في قرار سحيق. تكسّر صموده المعهود حين طفر دمع تاه مُعلقاً
في أحداقه، وكلمات التهئة أبت أن تُسعفه وتؤدي دورها الملح في
لحظة كهذه.

قفزت أمام عينيه صورتها قبل أن تحتجب. (حين كانت في الثالثة
عشرة وهو ابن سبعة عشر ربيعاً. وقت أن عبر أمام منزلها في العصري
ولمحا تناديه من النافذة أن يقترب من الباب وضوء هواها يومض في
عينها، ثم لمحا تفتح الباب بخجل وصدرها الناهد الصغير يعلو
ويهبط في تواتر:

– هادا ”اليغمش“ اللي تحبه، تعلّمته عشانك.)

يعود من طحين الأمس وقلبه كما بالونة نفخت فوق المعدل
فانفجرت دماً.

يفزع عارف:

– إيش بيه لونك انخطف؟ يا بويه إيش بك؟

رائحة نتنة تعبر أنفاسه فجأة، لا يعلم من أين قدمت الرائحة لكنه
استسلم لنوبة السعال بل حرّضها على الاستمرار كي يخفي عن
صاحبه ما ألمّ به، حتى تقيأ ما في معدته فاختلطت دموع فجيعة
باحمرار قوّة السعال، وعارف يتنفّض حائراً:

– لا إله إلا الله صلّ عالنبى.

مسح دموعه وهو يُمثّل أنه لم يسمع ما قاله رفيقه قبل لحظات:

– أعد ما قلته... لم أسمعك من الغصة؟

– خلاص سديت نفسي الله يسد نفسك، غيرنا الهرج.

شعر بالراحة لتغيير دفّة الحديث غير أنّه عجز عن استعادة توازنه
الداخلي وهما أمام باب منزله. حيّا عارف مودعاً وولج غرفته صامتاً
على غير عادته. قذف جسده على السرير وصورة من الأمس تعبر
سماء فكره بـ ”رتم“ بطيء:

نافذة غرفة عفاف تُفتح أثناء عبوره، بوجهها البريء الذي يحمل
تباشير تفتح البدايات. تُناديه بصوت محمّل بأطياف بعيدة، وحين رفع
رأسه جهة النافذة قذفته بوردة حمراء.

يعبر سقوط الورد الحمراء ذاكرته ببطء، كما يعبر صوت والدتها

التي فاجأتها بالدخول:

— أندري يا بنت الله يُقصِف رقبَتك... أندري فضحتينا...
تُغلق النافذة.

ولا يعلم لماذا منذ ذلك اليوم، كلما استعاد ذكرى إغلاق النافذة
شعر بمشَرط يمزق قلبه، كان يرى قلبه مُتورماً أمام عينيه ينزّ دماءه،
ويترك جُروحاً لا تزال ملوحتها حيّة حتى لحظة كهذه!
تدخل أمه قلقة:

— باسم الله عليك، إيش فيك؟

لا يرفع ذراعه عن عينيه ويجترّ صوتاً ذابلاً:

— تعبان يمّه، لا أريد أن أرى أحداً.

— طيب طمّني، ما الذي حدث؟

— بعدين بعدين... أريد أن أنام، من فضلك أطفئي النور.
همس مُحدثاً نفسه:

— أصلاً النور انطفأ خلاص.

تطفئ النور وتخرج وتبقى جالسة في الصالة، وبين الفينة والأخرى
تقترب، تفتح الباب بهدوء لتستمع إلى أنفاسه ثم تعود أدراجها. وحين
تأخر في نومته اقتربت منه، نادته بصوت خفيض ولم يردّ، لم يشأ أن
يردّ، أبوابه موصدة وظلامه طويل.

وضعت يدها على جبينه لترفعها فزعة من شدة الحرارة:

— يا ربي ما به هذا الولد؟

عاودت مناداته بهلع، ردّ في شبه هلوسة أنّه يريد أن ينام. صعبها
الجزع فجرت نحو التليفون تتصل براشد الذي انطلق بسيارته إلى

البيت مباشرة.

فتح الباب والقلق يصرخ على قسماته، وضع ظهر كفه ثم بطنها على جبين أخيه المتقد بأنين أشبه بالنحيب المخنوق.

- عبد الرحمن إيش فيك؟ تسمعني...؟

أنين متواصل دون استجابة دفعت راشد لحمل أخيه بين ذراعيه راكضاً به إلى السيارة وأمه خلفهما تلملم عباءتها وجزعها.

وحين شارف الليل على الرحيل، انتبه عبد الرحمن من نومة طويلة وحرارة جسده يسيل معها دفق ساخن من الماء الرطب يبلل الفراش تحته، وأذناه "تشران" ناراً كأن دماء تنزف منهما. شعر بكثافتها تسيل على رقبته لكنه لم يحاول لمسها... لم يبال.

التفت حوله فأبصر أمه تضع يدها على جبينها شبه نائمة، بجوارها راشد الذي لمح ابتسامته الخائنة تملأ وجهه حين استعاد أخيه، يكفي أنه عاد... يكفي.

- تدلّع يا بو فهد... تشوف غلاتك عندنا يعني؟

قالها بحزن رغم أنه حاول استحضار المرح.

أخذ عبد الرحمن نفساً عميقاً وملاحه تقطر بوجع رمادي... إن كان للوجع لون:

- خلاص... غابت الشمس ولم يعد هناك نور.

أشفق على والدته وأخيه من الغازه، فاستطرد:

- عفاف ملكت... عارف أخبرني.

للهولة الأولى شعر راشد بالصدمة، لكنّه استدرّك توازنه بسرعة

لتخفيف وطأة الأمر على أخيه:

- لو كنت مكانك وبين عارف ما بينكما لكنت صارحته.

- خفت، خشيت على علاقتنا من الخدش، تعرف مجتمعاتنا...

عند هذه المناطق المحرمة تضيق أبواب الانفتاح، وقد ينكشف في رفيقي جانب لم أره فلا أجني سوى خسارة صديق عمري.

- إن خسرتك لأنك فاتحته برغبتك الزواج بأخته فلا خير فيه، قد يرفض وهذا حقه لكن الخسارة أمر آخر.

تدخل الأم:

- يمه هذولا لا يزوجونا، هم غير واحنا غير.

- عارف صديقي منذ كنا أطفالاً وأنت تعلمين.

- النسب ليس له علاقة بهذه الأمور، آاه يا عيال الرئيس، يا خوفي

عليكم من قلوبكم!

- هي بعد تحبني ما هو بس عارف وكلكم تعلمون... تذكرين

حين كانت تعمل لي الـ "يغمش" وتأتي بنفسها لتراني.

- يمه كان لعب بنات، كانت طفلة والآن نضجت ووعت ما لها

وما عليها.

- أنا متأكد أنها تحبني... كل يوم الصبح وهي ذاهبة إلى مدرستها

المحها تلتفت باحثة عني قبل أن تركب مع سائقها، منذ أن كانت في

الثاني متوسط إلى قبل ثلاثة أشهر فقط... اختفت أسبوعاً ثم عادت

لتركب سيارتها دون أن تلتفت كما اعتادت. نظرة الصباح والأمل

والوعد الصامت بيننا.

ياخذ نفساً عميقاً ثم يصمت.

- لو اشتريت اثنين فلن يغردا... لازم واحد كي يغرد.
- تقصدين يعزف حزنه وإحساسه باللوعة والوحدة، بتستمتعين بترانيم وحدته، إنت قاسية وأنا ليس لي حق عليك... إنت حرّة .
- تركها وابتعد... وقفت صامتة، تُفكر... شعرت بأنه محقّ، تركت العصفور وعادت إلى السيارة وسار بجانبها صامتاً، وحين دخلت السيارة، علّقت بخجل:
- أنت كلامك صحيح، فعلاً قسوة وأنا شاكرة إنك نبّهتني.
- أنا اللي شاكر لك أنك سمعتيني وقدرتني كلامي، أعرف أني تجاوزت حدودي، أنا مش من حقّي بس... قضم كلمته... ولاذت هي بصمت ضاحٍ بالحياة.

– كما تُحَيِّن.

شعرت بأنّها أضاعته دون أن تقصد، لكنّ كبرياءها منعته من
الإيضاح، فضاقت روحها وعَنّ لها البكاء.
حين وصلت باب المدرسة، أخبرها دون أن يلتفت أنّ جعفر سيأتي
إليها ظهراً، فردّت بشموخ:
– لا أريدك ولا أريد جعفر... مع السلامة.

